الخواطر الإيمانية للإمام

محمد متولى الشعراوى

في ..

التوبة

دار الندوة

بسم الله الرحمن الرحيم

© دار الندوة للنشر ص . ب (٦٩) اسكندرية ج. مصر العربية

DAR EL - NADWA, P.O. BOX NO. (69), ALEX., EGYPT.

رقم الايداع ١٨٨٧/١٩٩٠م

تقديم

في كل لقاء مع **الإمام محمد متولى الشعراوى** نجد أننا نقف على شاطئ لمحيط هادر يذخر بنسمات الهداية والدلالة فى عصر قل من ينطق بها ولكنه يؤكد صدق حديث رسول الله ﷺ إذ قال ..

« إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على
رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها »

الإمام محمد متولى الشعراوى هو المصباح المنير فى ظلمة الحياة المعاصرة التى يشيع بها ظلم النفس للنفس ، والإنسان للانسان ، ليكون الإمام وسيلة وأسلوب للنجاة للنفس والإنسان . تلك الحياة الدنيوية هى الطريق لحياة الخلود إما .. جنات عدن أو .. جهنم وبأس المصير .. وقد أدرك عنا الإمام تلك الحاجة فى الوسيلة للنجاة فقد آل

الإمام على عاتقه بدون كلل أو ملل يهدى هذا وذاك ، ويتوب على يديه أولئك وغيرهم فرحين بما آتاهم الله من فضله بطوق النجاة كان فيها **الإمام محمد متولى الشعراوى** هو الأداة والوسيلة لنا .. ندعو له أن يثيبه الله فى مسعاه لأنه نعم الداعى والداعية .

ونحن نقدم هذا الموضوع الذى يمثل قطرة من البحر المحيط لنعرض أمراً ندرك أهميته .. ونسعى إليه إدراكاً ويقيناً بحلاوة التوبة والمغفرة ولكن كيف نؤتيها .. وما الوسيلة إليها ؟.. وكيف نحافظ عليها ليجلوا القلب بنور الإيمان بعد أن بعدنا عن المنهج الذى خلقنا من أجله كى لا نكون من الخاسرين يوم أن تبحث عن مكان لنا فى ظل الرحمن الذى لا ظل إلا ظله مع الصالحين .. العابدين .. الشاكرين يوم العرض عليه فى الموقف العظيم .

أمر التوبة شرعه الله للعباد ليعلمنا الله بأنه الرحمن الرحيم الذى برحمته قد وسعت كل شئ حيث أن باب التوبة مفتوح دائما .. فإن كنت عاصياً فلا تتصور أن لا تقبل توبتك .. فقد قال الحق جل جلاله .. إنه التواب ولم يقل أنه تائب ، وذلك ليؤكد لنا تعدد مرات التوبة وأيضا تعدد الأفراد الذين يتوب عليهم فإن من تاب توبةً نصوحة يبدل الله سيئاته حسنات .

أيها الناس !!.. تعقلوا قبل أن تمر الأيام ونحن فى غفلة ، أدركوا أن الإمام هو المعين ، والمبصر والدليل ، لنكون أمة محمدية تؤمن بالله ورسوله ونسير على الصراط إدراكاً منها أن فى الآخرة جزاء لسعينا

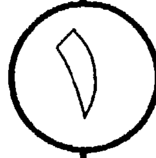
الصالح فى الدنيا حيث هى وسيلة لحسن الآخرة فهى خير وأبقى وخلود لنعيم دائم وذلك جهد الإمام لنا فى كل لقاء يدعونا إليه معه .

.. وبعد تلك فهى كلمات قليلة من كثير نسجلها قبل أن نتناول أجزاء ذلك الموضوع الهام الذى لا يغيب عن أذهاننا نحن المسلمين لنخرج بنفوسنا إلى نعيم الرحمة بعد العصيان أو الكفر أو الفسوق لنكون مثل من قال فيهم الحق سبحانه وتعالى ..

« فَمَن تَابَ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأُصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » صدق الله العظيم

والحمد لله رب العالمين ،

الناشـر



إنتبهـــوا !!

وتلك تذكرة .

إنه الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين .. سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعـد .

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ »

{آل عمران : ١٣٥}

« وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ »

{النساء : ١١٠}

الإنسان جمع بين السوء والظلم ، وجمع بين الفاحشة والظلم ، وكأن الذى يعمل سيئة لا يظلم نفسه ! أو كأن الذى يظلم نفسه لا يعمل

سيئة !.. فالمعنى واحد فى كون الذى يصنع الفاحشة إنما يحقق متعة عاجلة لنفسه ، وحين يحقق المتعة العاجلة لنفسه يكون فى الوقت ذاته غافلاً عن جزاء هذه المتعة ، وماذا يمكن أن يكون من العذاب عليها .

الإنسان لو إنه قرن المتعة العاجلة التى تخول له أن يفعل الفاحشة ليستمتع بها وقارنها بالجزاء الذى أعد له لإنصرفت نفسه عن هذه الفاحشة ، ولكن كثيراً من الناس يظلمون أنفسهم بمعنى أنهم لا يحققون بالذنب متعة لذواتهم فيكونون قد أعطوا أنفسهم بعض المتعة ولو كانت عاجلة فهم يفعلون الشئ ليحققوا متعة لسواهم فلم يستفيدوا لا بالمتعة العاجلة التى تحققها الفاحشة بل إنهم سيصلون جزاؤهم فى الآخرة على هذه دون أن تتمتع النفس بشئ ما ، وذلك ظلم للنفس لأن النفس حين تفعل فاحشة تكون قد أخذت شيئاً من المتعة ولو كانت متعة عاجلة .

هل ظلم النفس متعة ؟

الذى يصنع السوء ليحقق لسواه متعة فيكون قد ظلم نفسه لأنه لم يعطى متعة عاجلة بل إنه سيصلى بالعذاب الآجل ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ شرحاً لهذه القضية وتأكيدا لإسلوب القرآن ..

« شركم من باع دينه بدنياه
وشر منه من باع دينه بدنيا غيره »

الرجل الذى يشهد الزور ، والرجل الذى يظلم غيره بأخذ ماله .. يستمتعه المال فيكون قد صنع ذنباً وقد أخذ ذنباً وأخذ بالمال متعة قد حققها لنفسه ، ولكن الذى يشهد الزور لفرد ليأخذ للغير حق فقد حقق للغير متعة وبقى هو بلا متعة فيكون قد ظلم نفسه ، وبذلك إن الذى يفعل السيئة يحقق لنفسه متعة عاجلة وسهى عن المتعة الآجلة ، وإنما حقق لنفسه متعة . فلحظة أن يلجأ الإنسان فيها إلى المعصية فقد لا يحقق لنفسه متعة ولكن قد يحقق لآخر متعة فهو لا يأخذ متعة المعصية فى ذاتها ولا يأخذ متعة الآخرة .

* * *

وظلم نفسه

هناك فرق بين ظلم الغير وظلم النفس فيما بينه لنا القرآن الكريم فى قول الحق سبحانه وتعالى ..

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ »

[آل عمران : ١٣٥]

وفى قولـه ..

« وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ »

[النحل : ١١٨]

نقول أليس الذى فعل فاحشة ظلم نفسه .. نعم ظلمها فى الآخرة بإعطائها شهوة فى الدنيا أى أنه أخذ متعة عاجلة بعذاب آجل ، ولكن الذى يظلم نفسه هو الذى يرتكب إثماً دون أن يحصل على متعة فى

الدنيا فلا هو حصل على متعة الدنيا ، ولا أخذ متعة فى الآخرة مثل الذى يتطوع بشهادة الزور فقد أخذ عذاباً فى الآخرة ولم يحصل على متعة فى الدنيا .

الله رحيم بعباده .. كيف ؟

رحمة الله تأتى لترينا كيف أن الله رحيم بعباده وخلقه فالحق سبحانه وتعالى يخبرنا بأنهم مهما فعلوا فإنهم لو تابوا يقبل الله توبتهم ..

«فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ»

[التوبة : ١١]

وفى هذا تأكيد أن الإسلام يُجب ما قبله ، وأن الباب مفتوح دائماً لتوبة المشركين والكافرين مهما كانت ذنوبهم ، والله سبحانه وتعالى يقول .. «إن تابوا» ولم يقل إذا تابوا تكون توبتهم مؤكدة ولكن قوله .. «إن تابوا» فيها شك لأن ما فعلوه ضد الإيمان والمؤمنين كثير ، والذى نأمله منهم قليل ، ولكن التوبة لابد أن يباشر التائب بعدها مهمته الإيمانية التى يوضحها الحق سبحانه وتعالى ..

« فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ »

وكما أن الصلاة تجمع كل أركان الإسلام ، ولكن الحج مرة واحدة فى العمر ، والصوم شهر فى السنة ، ولكن لكى نتأكد من توبته فلابد أن

يؤدى الصلاة ذلك العمل اليومى الذى لا ينتظر وقتاً ، ولذلك تكون التوبة ومعها أداء الصلاة ، والصلاة قورنت بالزكاة فى آيات القرآن الكريم لأن الزكاة تضحية بالمال ، والمال ناتج العمل ، والعمل ناتج الوقت ، والصلاة تضحية بالوقت .. فكأن الصلاة فيها زكاة .

* * *

تنبيه من الله

الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الذين يريدون أن يشعروا بعظمة الله وبديع خلقه ليصلوا إلى النعيم .. لا يفوتهم أن يتأملوا فى آيات الكون لإنهم لو نظروا فى آيات الكون بإمعان لإستفادوا فائدتين .

الفائدة الأولـى .. هى معرفة ما خلق الله ليخدمهم ويستفيدوا مما هو مسخر لهم .

والفائدة الثانية .. أن يعرفوا أن هذا الكون خلق وسيلة ومعبراً إلى حياة أخرى .

الله قد خلقهم فى الكون ليعيشوا بالأسباب لينقلهم بعد ذلك إلى حياة يعيشون فيها بالمسبب وهو .. الله جل جلاله ، ولأن الإنسان الذى يعيش فى هذا الكون كل شئ فيه موقوت بوقت مهما طال فهـو ..

قصير ، وكل شئ فى هذا الكون يزول .. الملك يزول ، والغنى يزول ، والعمر يزول ، والذين يتقون هم الذين يلتفتون إلى آيات الله فى كونه ، والذين لا يتقون لا يلتفتون لآيات هذا الكون يكونون غير حريصين على الإيمان وأول شئ لا يؤمنون به هو .. عذاب الآخرة ، وقال فيهم الحق سبحانه وتعالى ..

« إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا »

{يونس : ٧}

يرجون .. يطلبون شيئاً محبباً ، وطلب شئ محبوب سواء ممكنا أو غير ممكن هو .. رجاء ، وإذا طلبت شيئاً غير ممكن أى لن يحدث فإنك تطلبه لتعلن محبوبتيك له مثل قول الشاعر «ألا ليت الشباب يعود يوماً» هذا .. رجاء ، ولكنه رجاء مستحيل الحدوث وهو ما يسمى .. تمنياً ، ولكننا نعرف جميعاً أنه لا يمكن أن يقع . إذاً فهناك رجاء مستحيل الحدوث وهذا هو .. التمنى ، ولكن الرجاء أن تطلب شيئاً محبوب الحدوث ومن الممكن أن يقع ويحدث .

عدة اللقاء .. كيف ؟ .

الرجاء كما قلنا طلب محبوب ، وهؤلاء لا يرجون أن يتم هذا اللقاء لأن الذى يرجوا لقاء الله هو الذى أعد نفسه لهذا اللقاء ، ولذلك فهو ينتظر الثواب من الله . إنما ذلك الذى فعل أشياء يستحق عليها عذاب

الله كيف يرجو لقاء ربه وهو يعلم أن ما ينتظره .. عقابه . مثل الذى يستشهد يقدم أعز شئ عنده وهى .. نفسه لماذا ؟ لأنه واثق أن ما ينتظره بالإستشهاد خير مما يتركه فى الحياة الدنيا .

إذاً الذى يرجو لقاء الله يجب أن يعد نفسه لهذا اللقاء وذلك بأن يتقى الله فى أوامره ونواهيه ، والإنسان تمر عليه أحداث كثيرة لا تخرج عن شيئين .. إما إنها حسنات وإما إنها سيئات ، وكل منا يعرف ماذا فعل من حسنات ، وماذا فعل من سيئات ، والإنسان قد يغش الناس ولكنه لا يغش نفسه فهو وإن كان يطلق العنان لشهواته ونزواته فانه يعلم ما يرتكبه هل هى حسنة أم سيئة ؟.. فإذا أحس بالفخر وأراد أن يعرف الناس كل الناس ، ماذا فعل ؟.. فهو قد عمل حسنة ، وإذا أراد أن يخفى ما فعله فلا يطلع أحد عليه ويخاف أن يعرفه الناس فهو قد ارتكب سيئة ! .

وعندما تأتى لحظة الإحتضار يعرض على الإنسان شريط حياته فإن كان مليئاً بالحسنات إستبشر وجهه لإنه تاركاً كل ما فى الدنيا إلى ما هو خير منها ، وإن كان شريط حياته مليئاً بالسيئات إكفهر وجهه ، ولذلك يقال أن فلان خاتمته حسنة أو خاتمته سيئة لماذا ؟.. لأن الروح لحظة أن تُقْبَضَ تقبض وتترك الجسد على ما يراه لحظة فراقها فإن رأى نعيماً كان .. ضاحكاً مستبشراً ، وإن رأى جحيماً كان منقبضاً مكفهراً ، مثل الطالب عندما يكون مجتهدا ثم يعرف النتيجة وهى نجاحه بتفوق يتهلل وجهه تماماً كالرجل الصالح الذى قدم العمل الصالح .

فى الدنيوية سهو للقاء ؟

أما الذين لم يقدموا شيئاً لهذه اللحظة فأول الأسباب لكراهية هؤلاء الناس للقاء الله سبحانه وتعالى هو أنهم رضوا بحياتهم الدنيوية فعملوا لدنياهم ، ولم يعملوا شيئاً من أجل الله ، والله سبحانه وتعالى سمى هذه الدار .. الحياة الدنيا حيث لا يوجد اسم أقل من ذلك يعطينا حقيقة هذه الحياة وهوانها .

المقابل للحياة الدنيا هى .. الحياة العليا التى يريدها الله سبحانه وتعالى لنا ، والناس فى كثير من الأحيان تتعب نفسها فى البحث عن عمر الدنيا هل هو مليون سنة ؟.. أو عشرة ملايين ؟.. أو مائة ؟.. نقول إن الدنيا بالنسبة لكل منا ليست بمقدار عمرها ، ولكن بمقدار عمرنا فيها لأنك بعد الموت لا علاقة لك بالدنيا فلا عمل يقبل ولا رزق يعطى ولا تكليف يتم ولا عودة تحدث . إذاً فالدنيا عمرها بمقدار بقاء الإنسان فيها وتلك ليست متيقنة ولكنها مظنونة فهناك من يموت فى بطن أمه ، ومن يموت وعمره شهر ، ومن يموت وعمره عام ، وعمرك فى الدنيا مهما طال فهو قليل ولذلك ..

« أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الأَخِرَةِ فَمَّا مَتَاعُ الدُّنْيَا فِي الأَخِرَةِ إِلاَّ قَلِيل »

(التوبة : ٣٨)

إذاً فعمر الدنيا بالنسبة لك لا علاقة له بحياتك إنما عمرك في الدنيا هو الذى له هذه العلاقة ، ولكن هب أنك ستعيش الدنيا من أول أيامها إلى آخر لحظة فيها ماذا تكون النهاية ؟.. طبعاً هى الموت .. «وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا» .. كأنهم رضوا بما تعطيه الدنيا لهم واعتقدوا أن هذا هو أقصى ما سيحصلون عليه .

إذا كانوا قد رضوا واطمأنوا فهم لا يعملون إلا من أجل الدنيا بلا ضابط أخلاقى فتكون عندهم الغاية تبرر الوسيلة ، ويفعلون كل ما يرضى شهواتهم ليأخذوا من الدنيا أكثر مما تعطى بصرف النظر عن منهج الله وفى ذلك يقول الحق ..

« وَالَّذِينَ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ »

{يونس : ٧}

* * *

الغفلة والهداية

ماهى الغفلة ؟.. الغفلة هى ذهاب المعنى عن النفس ومادام المعنى موجوداً فى نفسك فلا توجد .. غفلة وعكسها يقظة ، واليقظة هى .. إستقرار المعنى فى النفس . أنت عندما يستقبل عقلك المعلومات لابد أن تعرف أن ذهنك يلتقط المعلومة كما تلتقط آلة التصوير الصورة لا تعتقد أن هناك من يعرف المعلومة بتكرارها مرتين أو ثلاثة .. أو عشراً . كل العقول واحدة تلتقط المعلومة من أول مرة !.. إذا كان العقل ليس مشغولاً بغيرها ذلك لأن بؤرة الشعور للإنسان لا تتسع فى نفس الوقت إلا لمعنى واحد .

عندما يأتى معنى آخر يذهب المعنى الموجود فى بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور فإذا كانت بؤرة شعورك مشغولة بمعنى آخر فهى لا

تلتقط المعلومة الجديدة حتى لو تكررت مرة أو اثنين أو ثلاثة ... أو حتى عشرة ، والذى يحتاج إلى التكرار يكون ذهنه مشغولاً بشئ ما فلا يستوعب ما يقال له ومع التكرار قد يخلو الذهن فيستوعب المعلومة التى تريد أن تعطيها له لذلك قال الحق سبحانه وتعالى ..

« مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ »

{الأحزاب : ٤}

أى أنك لا تستطيع أن تستقبل شيئين فى وقت واحد أو تقوم بعملين فى نفس الوقت أو تكون مع الكفر ومع الإيمان معاً فإذا كنت تريد أن تستوعب وأن تفهم فلابد أن يكون ذهنك مستعداً لإستقبال شئ واحد فى نفس الوقت .

بعض الناس يحتاج إلى أن يقرأ الصفحة الواحدة مرتين لماذا ؟.. لأنه مشغول بأشياء أخرى ، وأنت إذا كان ذهنك مشغولاً فى مشكلة خاصة فإنك لا تستطيع أن تستوعب ما يقال . ولذلك فإذا نمت وبجانبك زميلك على سرير واحد وكل منكما مستوعب تماماً أنه نائم وبجواره زميله لا تجد أحد يتعدى على منطقة الآخر ، ولكن إذا لم يستوعب أحدهما هذه العملية يضايق كل منهما زميله أثناء النوم وهذا الإستيعاب من العقل نسميه .. اليقظة ، ونقول فلان يقظ أى مستوعب تماما أى .. وعيه موجود ومتنبه .

الغافلون والمأوى إلى أين ؟ .

الذين يمرون بآيات الله وغافلون عنها ولا ينتفعون بها لأن عقولهم مشغولة بالدنيا ، وهم مشغولون بالتخطيط لحياتهم الدنيوية ، وكيف سيأخذون كذا ويفعلون كذا ، ويسرقون من هذا ماله ويأخذون من ذاك زوجته .. الخ . إذاً فعقولهم لا تستوعب شيئاً من آيات الله ولا يلتفتون إلى منهجه ولا إلى لقائه فماذا يحدث لهؤلاء ..

« أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ »

المأوى .. هو المكان الذى يحميك من شئ .. أتكون النار هى المأوى ؟.. نقول .. نعم تكون هى المكان الوحيد الذى يجدونه أمامهم ليحتموا به فلا يوجد مكان آخر يذهبون إليه أى أنهم يبحثون عن المكان الذى يأويهم فلا يجدون إلا النار كما بين الحق سبحانه وتعالى فيهم ..

« مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »

أى بسبب ما كانوا يفعلونه من إنصرافهم إلى المعصية ، وبعدهم عن منهج الله ، والحق يأتى بالصورة المقابلة وهى .. صورة المؤمنين الصالحين فيقول ..

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ »

{يونس : ٩}

وأيـن الطريـق ..؟ .

الهداية .. لها معنيان الأول .. هو الدلالة على الخير وذلك ببيان المنهج الذى بعثه الله لنا وهذه الهداية هى للمؤمن والكافر لأن الله بين منهجه لكل الناس فالذى يقبل على الله بإيمان يعطيه الله هداية أخرى وهى الثانية .. هداية المعونة .. بأن يعينه على الطاعة ويكرهه فى المعصية .

إذاً الحق سبحانه وتعالى حين يهدى أى يدل المؤمن والكافر على طريق الإيمان يأتى للمؤمن ويعينه على الطاعة بأن يجعله يدرك لذة العبادة وأن تكون مشقتها بالنسبة له متعة روحية جميلة .

ولذلك نضرب مثلاً على الهداية بمعنى الدلالة وهى .. برجل يسير فى طريق لا يعرفه فيسأل جندى المرور فيدله على الطريق الذى يجب أن يتخذه ليصل إلى غايته هذه فهى .. هداية الدلالة ثم بعد ذلك يركب جندى المرور معه ليعينه على تخطى العقبات فى الطريق التى قد تجعله يضل ، ولذلك نقول أن الهداية هنا معناها .. الدلالة .

أما هداية المعونة على الإيمان فتأتى فى قول الحق سبحانه وتعـالى ..

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ »

[يونس : ٩]

وهكذا ييسر الله لهم بإيمانهم العمل الصالح ويُكرِّه لهم المعصية وذلك فى قول الحق تبارك وتعالى ..

« وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُم وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ »

{الحجرات : ٧}

وهذا نوع من .. هداية المعونة بينه القرآن الكريم ، وهو الهداية فى الآخرة ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى ..

« يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ »

{الحديد : ١٢}

وهذا النوع الآخر من الهداية هو .. هداية المعونة يوم القيامة يجعل الله للمؤمنين والمؤمنات نوراً يهديهم ويريهم طريقهم يوم لا نور إلا نوره . إذاً فتلك هداية الدنيا تزين العمل الصالح للمؤمنين ، وهداية الآخرة بالنور الذى يريهم طريقهم يوم القيامة كما قال الحق سبحانه وتعالى ..

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ »

{يونس : ٩}

تلك هذه الجنات تحيط بها ، وتجرى فيها الأنهار ، والجنات تلك هى أماكن جميلة مليئة بما شاء الله لها من .. الخضرة والزهور وغير ذلك ، وهى ليست المساكن التى سيسكن فيها أصحاب الجنة بدليل أن الحق سبحانه وتعالى يقول ..

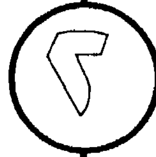
« وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ »

(التوبة : ٧٢)

وتجد أيضا القرآن يقول .. «تجرى تحتها الأنهار» ومرة .. «تجرى من تحتهم الأنهار» .. أى أن النبع الذاتى لا يستطيع أحد أن يقطعه أو يمنعه ثم يقول الحق سبحانه وتعالى مكملاً صورة المؤمنين فى الجنة ..

« دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ »





أيها الإنسان لقد بعدت عن المنهج

النفس البشرية

الحق سبحانه وتعالى ينبه المؤمنين إلى أنهم محاطون بالنفاق ، ولكن لماذا يحاط المؤمنون بالنفاق ؟.. يحاط المؤمنون بالنفاق لأن الدعوة الإيمانية لا تأتى إلا إذا عم الفساد ! ذلك لأن الحق سبحانه جعل فى النفس البشرية أشياء تطرد الباطل أى تتنبه له فتطرده ، وهؤلاء هم الذين يتوبون إذا فعلوا ذنباً فيردعهم الإيمان داخل نفوسهم ويكون الردع فى هذه الحالة ذاتياً .. وهذه هى النفس اللوامة .

عندما ينتشر الفساد ، ويألفه الناس يصبح المعروف .. منكراً ، والأمر بالسوء هو .. السمة المميزة للمجتمع ، وتصبح النفس أمارة بالسوء هى التى إتخذت من الأمر بالسوء حرفة أو وظيفة لأن أمارة أى .. فعالة وتلك تدل على كثرة مزاولة الفعل والمداومة عليه ، وهذه

الصيغة لا تطلق إلا إذا أصبح هذا العمل حرفة ، وأنت إذا أتيت بقطعة من الخشب تحاول أن تصنع منها شيئاً فأنت لست نجاراً ولا يقال لك إنك نجاراً إلا إذا كان عملك هو النجارة . إذاً فكلمة فعال تدل على مداومة الفعل ، وأمارة بالسوء .. أى أن عملها وحرفتها أن تأمر بالسوء دائماً .

المناعة الإيمانية .

النفس اللوامة فيها .. إيمان يمنعها من الإستمرار فى السوء ويردعها فإذا لم تكن النفس لوامة ، وكانت هناك مناعة إيمانية فى المجتمع فإن المجتمع يَرُدُّ من يرتكب السوء إلى طريق الصواب ، ولكن إذا اختفت المناعة الإيمانية من النفس البشرية ومن المجتمع عم الفساد .. فلا نفسك فيها رادع يعود بك إلى الإيمان ، ولا المجتمع فيه رادع يعيدك أيضاً إلى الإيمان .. إذاً فلابد أن تتدخل السماء .

الحق عز وجل يريد أن ينبه المؤمنين إلى أنهم محاطون بالمنافقين وأنهم يستطيعون معرفة المنافقين من تحركاتهم ، ولكن سيفلت منهم عدد يخدع البشر ولا يَعْلَمَهُ إلا الله ، ولأن الحق سبحانه وتعالى هو ولى المؤمنين فانه يعلمهم مالا يعلمون ، ويفضح لهم المنافقين . إذاً فقوله جل جلاله .. «مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ» أى أصبح النفاق حرفتهم وقوله .. «لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ» طمأنة للمؤمنين بأن هؤلاء لو أفلتوا من علم البشر فلن يفلتوا من علم الله بهم .

ويأتى الحق بالعقوبة فيقول ..

« سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ »

[التوبة : ١٠١]

الرد هنا هو .. لعذاب الآخرة حيث أن قول الله .. «سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ» .. ذلك فى الدنيا ثم يأتى العذاب العظيم فى الآخرة .

لكن ما هو العذاب الذى سيتم فى الدنيا مرتين ؟..

العذاب الأول .. أن يفضح الله ستر المنافقين ، ولذلك خطب رسول الله ﷺ فأشار قم يافلان .. أنت منافق ، ويا فلان .. أنت منافق أيَعَدَّ هذا عذاب فى أن يفضحهم الله ورسوله . أو تأتى لهم مصائب فى الدنيا ، ولكن هل المصائب عذاب للمنافق ؟.. كما أن المصائب تأتى للمؤمن أيضاً ، وفى تلك نقول إن المصائب إذا أتت للمؤمن أفادته ، وإذا أتت للمنافق دمرته .. كيف يحدث ذلك مع أن المصائب واحدة ؟

الإنسان المؤمن لا يجزع !! .

ونقول .. إن المؤمن حين يصاب يرضى بقضاء الله ، ويعرف أن ذلك لحكمة ، وأنه تكفير عن الذنوب ، وتخفيف من عذاب الآخرة فيتقبلها المؤمن بنفس راضية .

لكن المصائب حين تأتى للمنافق وهو لا يؤمن إلا .. بالحياة الدنيا تكون بالنسبة له عذاباً نفسياً مستمراً يدمره لأنه يحس أن كل شئ ضاع ، ولذلك يقال .. إن المصاب ليس من أصيب فيما يحب ، ولكن المصاب هو .. من حرم الثواب .

الإنسان المؤمن إذا أصيب بمصيبة إستقبلها من الله بالرضا لأنه يعلم أن الذى أجراها عليه حكيم ، ولا يجرى عليه إلا بالخير ولو لم يعلمه ، وهو يرجو ثواب الصبر والأجر على الرضا .

الإنسان المنافق فالمصيبة تذبحه فى قلبه ، وقد يكون العذاب بجانب الفضيحة هو .. إضطرار المنافقين إلى أن يظهروا بمظهر الإيمان فيخرج الزكاة وهو لا يؤمن بثوابها فيؤلمه كل دينار يخرجه لأنه يحس أنه يقطع من ماله بلا فائدة ، ويخرج إبنه للحرب نفاقاً ، ويظل قلقاً يتعذب طول غياب الابن .. هل قتل ؟.. هل حدث له مكروه ؟.. هذا العذاب يمزقه لأنه لا يؤمن بالشهادة ولا بعظيم أجرها بل يؤمن أنه سيخسر إبنه بلا فائـدة .

لو قرأت قول الحق تبارك وتعالى ..

« فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »

{التوبة : ٥٥}

ولنعرف أن العذاب فى الدنيا هو .. فى مالهم الذى يدفعونه نفاقاً ، وفى أولادهم إذا .. ذهبوا للحرب نفاقاً .

العذاب الثانى .. ويأتى عذاب آخر فى الدنيا أيضا .. ساعة الاحتضار والإنسان على أبواب الآخرة ويقول الحق ..

«وَلَوْ تَرَىَ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيق »

{الأنفال : ٥٠}

هذا لون آخر من العذاب .. ساعة الاحتضار ، والملائكة تنهال عليه ضرباً ، وضرباً على الوجوه وهو أشرف شئ فى الإنسان الذى يعتز به . هذه بعض ألوان من العذاب فى الدنيا .

الجائزة الكبرى .. ماهى ؟ .

الإنسان له ثلاث إستقبالات فى الزمن وهى .. زمن الدنيا وهو عمره فيها ، وزمن البرزخ وهو بين موته وبعثه ، وزمن الآخرة .

حين يصاب المؤمن فى الزمن الأول يعزيه أنه سيسعد فى الزمنين الثانى والثالث ولكن حيث يصاب المنافق فى الزمن الأول ماذا يعزيه ؟.. لا شئ لأنه لا يؤمن أن بعد الموت شئ . ثم يأتى بعد ذلك الزمن الثانى وهو .. زمن البرزخ الذى سيقضيه فى القبر ، ويعرض

عليه وهو فى قبره العذاب الذى ينتظره فى الآخرة فيعيش فى عذاب أخف من عذاب النار لأنه يرى كل يوم ماذا ينتظره !.. وكما يقولون وقوع البلاء أخف من إنتظاره ثم فى الآخرة يأتى العذاب العظيم .

الحق سبحانه وتعالى قال ..

« سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ »

{التوبة : ١٠١}

فلو قال .. نعذبهم مرتين بدون السين لإختلف المعنى لأن الذى يصاب بالعذاب مر به وإنتهى ، ولكن قوله تعالى .. «سَنُعَذِّبُهُم» ففى ذلك يريد الحق أن يلفتنا إلى أن العذاب متصل . وقول الحق أيضا .. «ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ» .. يردون ، يرجعون فكأن النفس البشرية تعرف جزاءها وترجع إليه .. فأنت إذا فعلت شيئا لا يليق بك فيجب أن توبخ نفسك وتعنفها .

النفس الأمارة .

إلحاح النفس البشرية على العقوبة يأتى من داخل النفس أيضا . فتلك النفس الامارة بالسوء حين تقضى حياتها فى المعصية تلح على نفسها بالعقاب وتطلبه كما أن أعضاء جسد الإنسان التى أطاعته بالمعصية فى الدنيا ، وهى مسبحة مؤمنة تأتى هذه الأعصاب يوم

القيامة وتدفع صاحبها إلى العذاب دفعاً لتنتقم من إجباره لها على المعصية ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه مدفوع إلى العذاب بأمر الله ، وهكذا يُدفَع إلى العذاب من نفسه ، ومن جسده ، وبأمر ربه كما فى قول الحق إلى .. «عَذَابٍ عَظِيمٍ» .

إن العذاب إما أن يكون .. عظيماً ، وإما أن يكون .. أليماً ، وإما أن يكون .. مهيناً ، وإما أن يكون .. مقيتاً . والعذاب العظيم إما أن يأتى بأسباب ، وإما أن يأتى من المسبب .. عذاب الدنيا بالأسباب قد يكون بالعصا أو بالسوط أو بتقطيع الأجساد أو بالرصاص وغير ذلك ، وهذا النوع من العذاب يختلف قوة وضعفاً حسب من ينفذه ، ولكن عذاب الآخرة إذا قيس بعذاب الدنيا فهو .. عذاب عظيم لأنه بقوة وقدرة الحق سبحانه وتعالى .

* * *

إعترفوا لله

يقول الحق سبحانه وتعالى ..

« وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَءَاخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

(التوبة : ١٠٢)

وآخرون معطوفة على من سبق عليهم القول من المنافقين ولذلك يخبرنا الله سبحانه وتعالى أن من هؤلاء المنافقين من سيتوب إلى رشده ويشعر بالحطة أمام نفسه وإعتبارها أقل ممن يواجهونه من المؤمنين ، وفى هذه الحالة يحتقر الإنسان نفسه ، ويختار طريق الإيمان ويعترف بذنبه ، ولا يصر على النفاق . والاعتراف لون من الاقرار بالذنب ، ولكن

الاقرار بالذنب أنواع .. فهناك من يقر بذنبه صفاقه وتحدياً ، وهناك من يقر بذنبه ندماً وقد نقول لإنسان أنت فعلت كذا وكذا فيقول .. نعم بتحد ، وقد يقول .. نعم بندم .

الاعتراف والندم !! .

الاعتراف للحق سبحانه وتعالى بذنوبنا لا يُقْبلَ إلا إذا كان ندماً ، ولا يلتفت إليه إلا إذا كان رجوعاً إلى الحق ، والله جل جلاله يقول عن هؤلاء .. «خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وءَاخَرَ سَيِّئاً» أى أنهم إرتكبوا الأعمال السيئة ثم .. تابوا وعملوا الصالحات فقد تخلفوا عن الجهاد ، وإعتنقوا الكفر ثم ندموا أى أقروا بذنبهم ندماً عليه .

قد إختلف العلماء فى ذلك .. هل الاعتراف بالذنب والندم عليه يعتبر توبة ؟.. وقالوا أن الحق تبارك وتعالى قال ..

«خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَءَاخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ»

عسى .. رجاء إذاً فهذه ليست توبة ولكنها مقدمات توبة التى يُصَاحِبِهَا الإصرار على عدم العودة فى المستقبل إلى العمل السئ نقول .. إنه إذا كان هذا العزم على عدم العودة إلى الذنب مخافة أن يُفْضَحُوا أو تجنباً لأى عقوبة دنيوية فإنه لا يعتبر .. توبة . أما إذا كان هذا موافقة لمنهج الله ، وحباً فى رضاه ، وخوفاً من عقابه تكون هذه هى .. التوبة .

وقول الحق سبحانه وتعالى .. « عَسَى أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » عسى تعنى .. الرجاء ، وهى ترجيح لحصول الخير . فإذا قلت فلان لم ينجح ولكننى أرجوا له أن ينجح فأنت ترجو حدوث شئ محبب إلى نفسك وهى بخلاف التمنى .. فالتمنى شئ تحبه وتتمنى حدوثه ولكنه لا يأتى فالشاعر الذى قال .. ألا ليت الشباب يعود يوماً .. تمنى أن يعود شبابه ، ولكن ذلك لن يحدث .

الشئ المحبب لك نوعان .. **الأول** : نوع تحب حدوثه ويمكن أن يحدث وهذا .. رجاء ، **والثانى** : شئ تحب حدوثه ولكنه لن يحدث وهذا .. تمن .

* * *

مِنّ مَنّ الرجاء

منازل الرجاء بالنسبة للإنسان مختلفة فأنت ترجو لنفسك من إنسان ، وأنت ترجو لإنسان من إنسان آخر فتقول .. عسى أن يعطينى شيئاً .. رجاء لنفسك من إنسان آخر ، وتقول .. رجوته عسى أن يمنحك شيئاً فأنت ترجو لغيرك من إنسان آخر . تقول .. هل لديك ولاية على من يعطى ؟.. لا فقد يعطيك وقد لا يتقبل رجاءك بالنسبة لنفسك أو لغيرك ، وتأتى إلى الصورة الثالثة هى إنك أنت الذى تحب أن تعطى فتقول .. عسى أن أمنحك كذا ، وهذه أقرب إلى .. الأداء من أن ترجو أنت من إنساناً لنفسك أو لغيرك ، ولكن حتى هذه الصورة وهى أقرب الصور إلى الرجاء البشرى .. قد لا تحدث لأنه قد يكون الذى وعدها قد قالها فى لحظة رضا عنك ثم حدث شئ جعله يغضب منك فيتغير الأمر ، وقد يكون هذا الإنسان حين وعدك .. قادراً ، وعندما تأتى ساعة الوفاء بالوعد يكون غير قادر أو يكون أجله قد إنتهى فلا يتحقق الرجاء .

فى أنواع الرجاء .

أما إذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الذى ترجو منه فهو جل جلاله قادر دائماً ، وموجود دائما ، وفعال لما يريد دائماً . إذاً فهناك أربعة أنواع من الرجاء ..

الأولى .. عسى فلان أن يمنحك .

الثانية .. عسى أن أمنحك أنا .

الثالثة .. عسى أن يمنحنى فلان .

والرابعة .. وعسى الله أن يمنحنى .

فإذا قال الحق سبحانه وتعالى .. عسى الله أن يمنحك يكون هذا أقرب أنواع الرجاء إلى التحقيق ، ولذلك قالوا .. الرجاء من الله إيجاب .

الحق تبارك وتعالى يقول ..

«عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » ..

وفى هذا رجاء أن يتوب الله عليهم ، والذى يتوب هو .. العبد ، ومعنى تاب العبد أى ندم على ما فعل ، ورجع إلى منهج ربه ، وعزم على ألا يعود إلى المعصية فى المستقبل . ولكن ما معنى تاب الله ؟.. نقول .. إن التوبة أنواع .

العودة إلى المنهج .

شرع الله التوبة ، وتشريع الله للتوبة رحمة منه لمن إرتكب الذنب ، ورحمة للذين وقع عليهم الذنب لماذا ؟.. لأنه إذا أذنب إنسان ولم يشرع الله التوبة تكون مصيبة على المجتمع كله لأنه فى هذه الحالة سيفترف المجرم لا أمل له فى النجاة من النار فيزداد ويتمادى فى معصيته وفى ظلمه ، ويقاسى المجتمع كله من شروره ، ولكن تشريع الله للتوبة يجعل فى قلب هذا المذنب رجاء ، ويقول .. لقد أذنبت ولكن لن يضيع الأمل منى فلأسارع بالتوبة عسى أن يتقبلها الله منى ويغفر لى . إذاً فهناك أمل فى أن يرجع إلى الله فينجوا المجتمع من شروره .

تشريع الله للتوبة رحمة فإذا تاب الإنسان لا يكون ذلك إلا لأن الله سبحانه وتعالى شرع التوبة . إذاً فتشريع التوبة شئ ، والتوبة بالفعل شئ آخر ، وقبول الله للتوبة شئ ثالث فقول الحق تبارك وتعالى ..

«عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ»

نقول أن تشريع التوبة من الله .. توبة منه على عباده ، وقبول توبة العبد ذنوبه توبة من الله عن العبد ولذلك يقول المولى عز وجل .. «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» .. أى شرع الله التوبة أولاً ليتوبوا إليه .

هناك ثلاث مراحل هى ..

الأولى .. تشريع التوبة .

الثانية .. توبة العبد .

الثالثة .. قبول التوبة .

التوبة مادامت رجوعاً عن شئ فهى بالنسبة للعبد رجوع عن ذنب ، وهى بالنسبة للحق سبحانه وتعالى رجوع عن العقوبة لأن الذى يرتكب ذنباً يستحق عقاب الله فإذا تاب عن ذنبه رجع الله عن عقابه أو رفع عنه العقاب فقد قال الحق جل جلاله ..

« إِنَّ اللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

لماذا الله غفور رحيم ؟.. لأن الذنوب التى تقع من الإنسان على غيره إنما تضر هذا الغير فإذا إعتدى على فرد بالضرب أو سرقه أو إعتدى على أحد أولادى فهذا ضرر وقع علىّ أتعبنى ، وأحب أن أنتقم لنفسى ، ولكن أيتعب أحد ربه بالمعصية ؟.. طبعاً لا لأن المعصية لا تضر إلا صاحبها ، والذنب الذى ترتكبه إنما أصابك أنت ، وحين يكون الله غفوراً .. يكون غفوراً لك .

الرحمة منك يا الله ..

وحين يكون الله رحيماً يكون .. رحيما بك ، وهذا من فضله ، وكما نذكر إن الاحداث نوعان ..

الأول .. للإنسان فيه غريم .

والثانى .. لا غريم للإنسان فيه .

ونقول .. إنسان مرض من هو غريمه ؟.. لا أحد . إنسان إعتدى عليه بالضرب أو أحرق منزله .. فهذا له غريم . إذاً فالأحداث قسمان .. قسم للإنسان فيه غريم تنفعل نفسه ليرد العقوبة ، وحدث ليس فيه غريم يحتاج إلى إيمان صادق ، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى ..

« وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ »

[الشورى : ٤٣]

وقال الحق جل جلاله ..

« وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ »

[لقمان : ١٧]

يقول بعض المستشرقين إن هذا تكرار فى القرآن الكريم ، ونقول .. لم تفهموا معنى الآيتين ، ونقول لهم «لم» خاصة بالاحداث التى للإنسان فيها .. غريم ، ولذلك أكدها الله باللام فقال .. « إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ » ، والآية الثانية عن الاحداث التى ليس فيها غريم فقال تعالى .. « إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » .

* * *

عاقبوا أنفسكم

الذين إعترفوا بذنوبهم هم قوم تخلفوا عن الجهاد بغير عذر ، وهناك من إعترفوا بذلك ، وهناك من قدموا أعذاراً كاذبة هؤلاء وهؤلاء تابوا وندموا على ما فعلوا ، والذين قدموا أعذاراً كاذبة .. تابوا إلى الله فى نفوسهم .

رسول الله ﷺ والمؤمنون دخلوا ليصلوا ركعتين فى المسجد كما كان الرسول يفعل دائماً عند دخوله المدينة حيث يتجه أول الأمر إلى المسجد ليصلى ركعتين فعندما دخلوا المسجد وجدوا أن هناك عدداً من الناس ربطوا أنفسهم فى أعمدة المسجد فسأل ماذا يفعل هؤلاء ؟.. قالوا أنهم جماعة إعترفوا بأنهم تخلفوا عن الجهاد بأعذار كاذبة فربطوا أنفسهم فى أعمدة المسجد ، وقالوا .. لن نحل أنفسنا حتى يحلنا رسول الله ﷺ أى أنهم هم الذين ذهبوا بأنفسهم إلى العقوبة .

رسول الله ﷺ قال .. والله لن أحلهم إلا إذا نزل فيهم حكم السماء .
فلما نزلت فيهم هذه الآية ذهب رسول الله ﷺ وحلهم ومن هؤلاء .. أبولبايه ، وابن ثعلبه ، ووديع بن خزام ، وهذا يدلنا على أن المؤمن حين يفعل معصية لا ينتظر حتى يعاقبه الله عليها بل هو يبادر بأن يعاقب نفسه ، والمرأة التى زنت فى عهد رسول الله ﷺ هى التى طلبت منه .. الرجم وألحت فيه ، ولما صلى عليها الرسول ﷺ بعد أن رجمت وماتت قال له عمر رضى الله عنه .. يا رسول الله أتصلى على زانية ؟.. فقال رسول الله ﷺ .. إن هذه المرأة قد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض جميعاً لوسعتهم !!.

عذاب الدنيا نجاة .

لذلك فإن المؤمن إذا إرتكب معصية يطلب عذاب الدنيا لينجو من عذاب الآخرة ، ولذلك فإن الذين إعترفوا بذنوبهم راجعوا أنفسهم بعد تخلفهم عن الغزوة ـ غزوة تبوك ـ وربطوا أنفسهم فى أعمدة المسجد حتى نزلت فيهم هذه الآية ففك وثاقهم رسول الله ﷺ ولما حدث هذا ذهبوا إلى الرسول وقالوا .. خذ أموالنا فهى التى شغلتنا عن الجهاد فرفض رسول الله ﷺ أن يقبلها منهم فنزل قول الحق تبارك وتعالى ..

« خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (التوبة : ١٠٣)

قول الحق سبحانه وتعالى .. « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً » .. أتعنى الصدقة الواجبة أم الصدقة غير الواجبة . لو كانت الصدقة الواجبة ما نزل فيها حكم جديد . إذاً فهى صدقة الكفارة وقوله تعالى .. « مِنْ أَمْوَالِهِمْ » .. تسب الله المال إليهم . بينما الحق سبحانه وتعالى يقـول ..

« وَءَاتُوهُم مِنْ مَّالِ اللهِ الَّذِى ءَاتَاكُمْ »

{النور : ٣٣}

إذاً فالمال كله مال الله وحين ينقله إلى خلقه فهذا فضل من الله ، والله يريدنا أن نعرف أنه لن يرجع فى هبته ، وأنه ينسب المال إلى من أعطى له ولذلك يقول الحق سبحانه ..

« مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً »

{البقرة : ٢٤٥}

وكيف نقرض الله جل جلاله وهو واهب المال ؟.. نقول .. أن الله احترم هبته لخلقه ، وحين قال الحق سبحانه .. «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ» فإنه يطلب منا أن نتحرك فى الحياة حركة أوسع من حاجاتنا حتى نستطيع أن نتصدق بما يزيد عن الحاجة ، ونلاحظ هنا فى ملكية المال أن الحق سبحانه أخرج من ملكيه المال السفيه فقال سبحانه ..

« وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ »

{النساء : ٥}

الله سبحانه لم يقل .. أموالهم لأن السفيه لا يصح أن يتملك فإذا عاد إلى رشده يقول الحق سبحانه .. « فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » .. ولم يقل .. أموالكم لأنهم أصبحوا أهلاً للملكية .

كونوا من المتقين ..

والمتقون هم الذين يجعلون بينهم وبين أى شئ وقاية لذلك فإن بعض الناس يتعجب من قول الحق سبحانه وتعالى .. «وَاتَّقُوا اللَّهَ» وكذلك قوله .. «وَاتَّقُوا النَّارَ» وبعض الناس لا يفهم هذا التعبير ، ولكننا نقول له إن معنى .. «اتَّقُوا اللَّهَ» أى إجعلوا بينكم وبين صفات الجبروت وقاية .. إتقوا صفات الجبروت فى الله حتى لا يصيبكم عذابه لأن لله صفات جلال منها .. المنتقم والجبار والقهار ، وله صفات جمال فاجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية لأنكم محتاجون الا تتعرضوا لغضب الله .

الإنسان يتقى صفات الجلال فى الله بأن يتبع منهجه ويطيع ما أمر بـه .





سبحانك ربى أتوب إليك وأستغفرك ..

ونشهد على أنفسنا

الله الرحيم بخلقه يفتح باب التوبة لأنه هو الذى خلق ونحن عبيده ، ونحن صنعته التى يريد لها الإعتدال والكمال فمهما قسا على الكفار فإن رحمة الله سبحانه تأبى أن يقفل باب الرحمة ويفتح لهم باب التوبة ويقول ..

« وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

{التوبة : ١٥}

والعليم .. أي أنه يعلم كل متطلبات الاحكام ، وحكيم .. أى لكل أمر عنده حكمة فحكم القتال له حكمة ، وحكم التوبة له حكمة ، القتال حتى لا يتجبر الكفار على المؤمنين ، والتوبة لمنع طغيان الكفار فى الشر لأن مشروعية التوبة هى رحمة من الحق سبحانه وتعالى بخلقه ،

ولو أن الله لم يشرع التوبة لكان الذى يرتكب معصية يقول .. أنه مادامت لا توجد توبة ومادام مصيرى إلى النار فلآخذ من الدنيا ما أستطيع ، وبذلك ينطلق فى الظلم والفساد والإفساد لأن مصيره واحد مهما عمل صالحاً أو أفسد مادامت لا توجد توبة .

تشريع التوبة يجعل الظالم لا يمضى فى الظلم بل يضع فى نفسه الأمل فى أن الله يتوب عليه ويغفر له فيتجه إلى العمل الصالح عله يُكَفِرُ عما أرتكب من المعاصى ، وفى هذا حماية للمؤمنين من شره ، وحماية للناس من إنتشار الظلم والفساد .

إذاً القتال له حكمة ، والتعذيب له حكمة ، والخزى له حكمة ، والتوبة لها حكمة . والحق سبحانه وتعالى حين يعاقب .. يعاقب عن حكمة ، وحين يقبل التوبة .. يقبل عن حكمة .

وهنا تأتى لفتة إيمانية فى قول الحق سبحانه وتعالى ..

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرُ بِمَا تَعْلَمُونَ »

[التوبة : ١٦]

حينما تسمع «أم» فاعلم إنها تعنى .. ما كان الله سبحانه وتعالى يترككم حتى يعلم علم واقع لتكونوا شهداء على أنفسكم فيمن يؤمن

إيماناً حقيقاً فإن ظننتم إن الله تارككم بدون إبتلاء أو إختبار فأنتم مخطئون . الإبتلاء أمر ضرورى للمؤمنين لتصفية الدين من المنافقين والمفسدين حتى يتحدد موقف كل واحد من الإنتماء إلى الله وحده مضحياً بكل مغريات الحياة ، و .. «يَعْلَمَ اللَّهُ» سبحانه وتعالى لأن علمه أزلى ، ولكن الله يريد أن يغلق على الإنسان باب الجدل وباب الإدعاء فيأتى بالتجربة الحقيقية العملية ليكون الإنسان شهيداً على نفسه .

إذا أردنا مثال يقرب ذلك إلى الأذهان نجد فى الحياة الدنيا أكثر من مثال مثل الإمتحانات أو الإختبارات التى تتم فى الدنيا كلها ما هو هدفها ؟.. أن يكون الإنسان شهيداً على نفسه . الاستاذ لا يختبر طلابه ليزداد علماً فهو الذى أعطاهم العلم ودرّسه لهم ، ولكنه يختبرهم حتى يكون كل واحد منهم شهيداً على نفسه فلا يأتى طالب غير مستذكر دروسه ويقول .. لو كان هناك إختبار وجاء ترتيبه الأخير فلا يستطيع أن يفتح فمه ، وأصحاب الوظائف العليا حين يختبرون المتقدمين للوظيفة إنما يختبرونهم ليكونوا شهداء على أنفسهم صالحين كانوا أو غير صالحين .

* * *

إحـذر !

الحق سبحانه وتعالى فضح المنافقين وبين ما فى قلوبهم لكن لم تتخل رحمته عنهم لأن الله جل جلاله رحيم بعباده ، ولذلك فتح لهم باب التوبة فقال ..

« فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَّهُمْ »

(التوبة : ٧٤)

وفتح باب التوبة رحمة لحركة الحياة كلها لأنه إذا أغلق الله باب التوبة أصبح كل من إرتكب ذنباً مصيره النار ، وإذا علم الإنسان أن مصيره للعذاب مهما فعل فانه يستشرى فى الذنب ويزداد فى الإثم مادام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة ، ولكن حين يعلم أى إنسان يخطئ أن باب التوبة مفتوح فإنه لا يزداد فى إثمه وشروره ، والذى

يعانى من الشرور والآثام هو المجتمع ككل فإذا وجد لص خطير مثلاً فالمجتمع هو الذى يعانى من سرقاته ، وإذا وجد قاتل محترف مثلاً فالذى يعانى من جرائمه هم الذين سيقتلهم من أفراد المجتمع .

فتح باب التوبة رحمة للمجتمع لأنها لا تجعل المجرم يزداد فى إجرامه فإذا نظرت إلى الآية الكريمة فالله سبحانه وتعالى بعد أن أظهر الحق وبين للرسول ﷺ وللمؤمنين أشياء كان المنافقون يخفونها فتح لهم باب التوبة وحينئذ قال الجلاس بن سويد زعيم المنافقين .. يا رسول الله لقد عرض الله علىّ التوبة ، والله لقد قلت ما قاله عامر وأن عامر لصادق فيما قاله عنى وتاب الجلاس وحسن إسلامه .

جزاء من يرفض التوبة

الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا حكماً فى أولئك الذين تعرض عليهم التوبة ولا يتوبون إلى الله فقال ..

« وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ فِى الْأَرْضِ مِن وَلِىٍ وَلاَ نَصِيرٍ »

(التوبة : ٧٤)

أى أن جزاء من يرفض التوبة ، ويعترف بخطئه ويتجه إلى الله فإن له عذاب أليم ليس فى الآخرة فقط لكن فى الدنيا والآخرة معاً ، وعذاب

الدنيا إما بالقتل أو بالفضيحة ، وعذاب الآخرة فى الدرك الأسفل من النار لكن قول الحق سبحانه .. « وَمَالَهُمْ فِى الأَرْضِ مِن وَلِىٍ وَلاَ نَصِيرٍ » يعطى بعض الناس إنطباعاً خاطئاً بأن العذاب فى الدنيا فقط ، ولكن هناك أرض فى الدنيا ، وأرض فى الآخرة وهى أرض الميعاد وذلك تصديقاً لقوله تعالى ..

« يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ »

[ابراهيم : ٤٨]

إذاً للأرض صورتين فى الدنيا وفى الآخرة وقول الله .. «وَمَالَهُمْ فِى الأَرْضِ مِن وَلِىٍ وَلاَ نَصِيرٍ» .. الولى هو .. القريب منك الذى تفزع إليه عند الشدائد طمعاً فى أن ينصرك أو لمن هو أقوى منك . أما النصير فهو .. من تطلب منه النصرة وقد يكون من البعيدين عنك ولا تربطك به ولاية . إذاً فلا الولى القريب منك ، ولا الغريب الذى تفزع إليه لينصرك يستطيعان أن يفعلا شيئاً وذلك لتعلم أنه لا نجاة من عذاب الله .

التوبة لها مراحل أى توبة شرعها الله سبحانه حيث أن تشريع التوبة من الله سبحانه رحمة لكل خلقه المذنب منهم وغير المذنب لأننا كما ذكرنا لولم يشرع الله التوبة لإنتشر الظلم فبمجرد أن يرتكب الإنسان معصية واحدة ويعرف أنه لا توبة له يزداد فى المعاصى لأنه لا فائدة بعد ذلك من عمل الخير ، وإذا إزداد الإنسان فى المعاصى فالمجتمع كله يشقى بها حيث تمثل هذه المعصية إعتداء على خلق الله وحقوقهم .

إذاً فتشريع التوبة من الله رحمة ، وقبولها رحمة أخرى ففى تشريع التوبة رحمة بالمذنب لأنها تفتح أمامه طريق العودة إلى الله ، ورحمة بالذى يقع عليه الذنب لأن الله سيبعد عنه شرور المذنب وطغيانه لأنه تاب أى أن قبول التوبة رحمة بالمذنب ورحمة لمن يقع عليه الذنب فإذا سمعت قول الحق .. «ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا» .. نفهم أن الله شرع لهم التوبة ليتوبوا بالفعل ويقبل الله توبتهم .

* * *

الوسيلة للتوبة

الله سبحانه وتعالى يفتح باب التوبة أمام عباده جميعاً ، ولا يغلقه أبداً ، ولذلك يقول رسول الله ﷺ ..

« إن الله أفرح بتوبة عبده من فرحة أحدكم
وقع على بعيره وقد أضله فى فلاة »

أى أنه وأنت مسافر فى صحراء جرداء بعيدة تماماً عن أى عمران ثم جلست لتستريح ومعك الجمل الذى تسافر عليه ، وعليه الماء والطعام ، وكل ما تملك من وسائل الحياة ثم غفلت عن الجمل فأنطلق شارداً وسط الصحراء ثم تنبهت فلم تجده ولا تعرف مكانه ، وفجأة وأنت تمضى على غير هدى وجدت الجمل أمامك فماذا تكون فرحتك ؟!.. بلاشك تكون

فرحتك كبيرة لأنك وجدت ما ينجيك من الهلاك فرحة هائلة تملأ نفسك كلهـا .

الله يفرح بتوبة عبده .. ونلاحظ أن هناك ثلاثة شروط للتوبة هى..

الأولى : التوبة والعودة إلى الإيمان .

الثانية : إقامة الصلاة .

الثالثة : إيتاء الزكاة .

التوبة تقتضى ..

وتلك الثلاث لابد أن تؤدى معاً .. لماذا ؟ لأن التوبة عن الكفر هى دخول فى حظيرة الإيمان ، والدخول فى الإيمان يقتضى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وبذلك يتحقق الركن الأول للإسلام ، والركن الثانى هو .. إقامة الصلاة ، والركن الثالث هو .. إيتاء الزكاة ، والركن الرابع هو .. صوم رمضان .. أما الركن الخامس هو .. حج البيت لمن إستطاع إليه سبيلاً .

لو نظرت إلى أركان الإسلام الخمسة تجد أن المسلم قد ينال بعضها ، ولا ينال البعض الآخر فنرى أن المسلم الفقير الذى لا يجد إلا ضروريات الحياة تسقط عنه الزكاة ، ويسقط عنه الحج ، وكذلك المسلم المريض يسقط عنه الصوم .. لكن تبقى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وهذه تكفى أن يقولها المسلم فى العمر مرة واحدة فقط .

أما الصلاة فهى التى تبقى ولا تسقط أبداً لا فى الفقر أو فى الغنى ولا فى الصحة أو فى المرض ، ولذلك فهى الفارقة بين المسلم وغير المسلم ، وهى عماد الدين لأنها تتكرر كل يوم خمس مرات ، وهى التى لا تسقط أى لا تسقط عن المسلم أبداً .. فقيراً كان أم غنياً . فالمريض عليه أن يصلى بقدر إستطاعته فإن لم يستطع أن يؤديها واقفاً فليؤديها جالساً ، وإن لم يستطع جالساً فيؤديها راقداً ، ولذلك إشتملت كل صلاة على كل أركان الإسلام .

فى كل صلاة نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وكل صلاة فيها زكاة .. لأن الزكاة إخراج بعض المال للفقراء ، والمال يأتى من العمل ، والعمل يحتاج لوقت ، والصلاة تأخذ بعض وقتك الذى يمكنك أن تستخدمه فى العمل فيعطيك رزقاً تزكى به . إنك وأنت تصلى أعطيت بعض مالك لله لأنك أخذت الوقت الذى كان يمكن أن تعمل فيه فتكسب مالاً للزكاة . فإن الصلاة فيها زكاة الوقت ، والوقت هو ما نحتاج إليه فى حركة الحياة للحصول على المال فتكون فى الصلاة زكاة .

الصوم .. أنت تصوم عن شهوة البطن ، وشهوة النساء وفى الصلاة أنت لا تستطيع أن تأكل فكأنك لابد أن تصوم عن شهوة البطن وأنت تصلى ، وأنك لابد أن تصوم عن شهوة النساء أثناء الصلاة فلا تستطيع وأنت تصلى أن تفعل أى شئ مع زوجتك بل أن دائرة الإمساك هنا أوسع لأنك ممنوع من الحركة ومن الكلام . إذاً الصلاة فيها صوم ، ولكن دائرة الإمساك فيها أوسع .

الحج .. حج إلى بيت الله الحرام .. نقول أنك لحظة وساعة أن تصلى لابد أن تتجه إلى بيت الله الحرام ، وتتحرى القبلة . إذاً فكأن البيت الحرام فى نفسك وفى ذكرك وأنت تتجه إليه فى كل صلاة . إذاً فقد جمعت الصلاة أسس الإسلام كلها ، ولذلك فإن الصلاة هى عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين .

إذا قرأت القرآن الكريم تجد أن الصلاة مقرونة دائماً بالزكاة لأن الزكاة بالمال ، والصلاة زكاة بالوقت ، والوقت نحن محتاجون له لنشتغل خلاله حتى نأتى بالمال .

الحق سبحانه وتعالى يقول ..

« فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ »

[التوبة : ٥]

معنى ذلك أنهم إذا لم يؤدوا الثلاثة معاً لا نخلى سبيلهم فهم يدخلون تحت العقوبات التى حددها الله وهى .. « إِقْتُلُوهُمْ » .. أو .. « خُذُوهُمْ » .. أو ..

« وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ »

[التوبة : ٥]

أول العقوبات هى القتل وذلك لأئمة الكفر فإذا آمن كافر ، وترك الصلاة لا يكون قد تاب وآمن ، وإذا لم يؤد الزكاة لا يكون قد تاب

وآمن ، ولذلك فإذا لم يقوموا بالعبادات الثلاثة لا نخلى سبيلهم ، ولقد أفتى بعض الأئمة بأن تارك الصلاة قد يقتل .. نقول .. لا .. تارك الصلاة إما أن يكون قد تركها إنكاراً لها ، وجحوداً عنها ، وإما أن يكون قد تركها عن كسل لأنه لا يقدر على نفسه والدنيا تجذبه بمشاغلها فعلينا أن نحاول بالحكمة والموعظة الحسنة بأن ننصحه ونستحثه حتى يعود إلى الصلاة .

وبعض الأئمة يقولون لقد قاتل أبوبكر أولئك الذين إرتدوا ومنعوا الزكاة ، ونقول إن كانوا منعوها وهم مؤمنون بها أى ظلوا على إيمانهم ومنعوها ففى هذه الحالة يكونون .. عاصين ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل ردوا الحكم على الله ، وأنكروا الزكاة فكانوا بذلك قد إرتدوا .. كفاراً لأن هناك فارقاً بين أن ترد الحكم على الله وتنكره ، وبين أن تسلم بحكم الله ، وتعلن أنك على إيمانك بهذا الحكم لا تقدر على التنفيذ أو تعترف بأنك مقصر فى التنفيذ .

بعض الناس الذين يحاولون أن يدافعوا عن الربا ويحللوه نقول لهم .. قولوا هو حرام ، ولكننا لا نقدر على أنفسنا حتى لا تعودوا كفاراً لأنك إذا قلت إن الربا حرام ولكن ظروفى قهرتنى فلم أستطع .. فتكون بذلك عاصياً .

الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم أن إبليس أمره الله فعصى ، وآدم أمره الله فعصى فلماذا قضى الله بأن إبليس عليه اللعنة إلى يوم

القيامة ؟.. بينما تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه وغفر له ، ونقول أن إبليس رد الحكم على الله فقال ..

« ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً »

[الإسراء : ٦١]

إبليس رد الحكم على الله ، ولكن آدم لم يقل ذلك ، وإنما قال .. حكمك ياربى صحيح وما أمرتنى به هو حق ، وأنا لم أقدر على نفسى فظلمتها فتب علىَّ ، وذلك تصديقاً لقول الله سبحانه وتعالى ..

« قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ »

[الأعراف : ٢٣]

هذا هو الفرق بين المعصية والكفر ، ولذلك فإننا ننصح كل من لا يقدر على نفسه بالطاعة ألا ينكر ما هو معلوم من الدين بل يعترف إنه ظلم نفسه حتى يقبل الله توبته .

* * *

وجاء مستجيباً للتوبــــة !!

الحق سبحانه وتعالى يقول ..

«وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حتى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُونَ »

{التوبة : ٦}

الله سبحانه وتعالى يبين أن الكفار إذا تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فيتركون أحراراً ماداموا قد أعلنوا الإيمان ، وقرنوا الإيمان بالعمل ففى هذه الحالة الله يغفر لهم ما قد سلف .

الله سبحانه وتعالى يبين عظمة الإسلام والرحمة التى نزل بها هذا الدين فيخبرنا أن الذين لم يتوبوا من الكفار وظلوا على حالهم ولم تقدر

عليهم بأى عقوبة من العقوبات التى جاءت ثم جاءنا أحدهم مستجيراً أى يستجير بالمؤمنين فمادام قد إستجار بك فأجره ، وإذا أجرته إسمعه كلام الله ، وحاول أن تهديه إلى الإيمان وإلى الطريق المستقيم فإن آمن وأقتنع وأعلن إسلامه أصبح واحداً من المسلمين ، وإن لم يسمع كلام الله ولم يقتنع فلا تقتله ولكن إبلغه مأمنه أى إسأله من أين جاء ؟.. فإذا قال لك أسم القبيلة التى ينتمى إليها أو حدد المكان الذى جاء منه فتأكد أنه سيكون آمناً حتى يبلغ المكان الذى يجد فيه الأمان .. تلك هى المرحلة الأخيرة من علاقة الإيمان بالكفر.. وهى مرحلة الإجارة والتأمين.

الضمير الإيمانى أداة

الحق سبحانه وتعالى حين تفضل على خلقه فى الأرض فأرسل إليهم رسوله محمد ﷺ كان ذلك بعد أن مرت فترة طويلة على من سبقوه من الرسل ، ومعنى ذلك أن منهج السماء كان قد نسيه الناس وحرفوه وكان لابد أن تتدخل السماء بإرسال خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ، ولقد خلق الله ضميراً إيمانياً فى كل نفس بشرية فحين تسرف كل نفس على نفسها ، وترتكب المعاصى فيثور الضمير الإيمانى فى داخلها فهناك من يتوب ويرجع إلى الله من ذات نفسه وبضميره الإيمانى .. فتلك هى النفس اللوامة .

معنى وجود اللوم فى النفس هو أن الإيمان هو الذى يوقف المعصية ويرد صاحبه إلى الطريق الصحيح ، ولكن هناك نفس عندما يثور فيها

الضمير الإيمانى لا ترتدع بل تحاول إخماد هذا الضمير بتبريرات زائفة وتظل ترتكب المعاصى حتى تعتاد تلك المعصية ، ويموت فيها الوازع الإيمانى فتجدها قد عشقت والعياذ بالله مخالفة منهج الله ولم تعد نفساً لوامة بل تصبح نفساً أمارة بالسوء ، وحين تصبح النفس أمارة بالسوء ينقل الله المناعة الإيمانية من النفس إلى المحيطين بها من عباد الله فتجد المحيطين بمرتكب المعاصى يردعونه عن المعصية ، ويقفون منه مواقف الإيمان من الردع والمقاطعة والجفوة حتى يعود إلى رشده .. وتلك مرحلة ثانية من مراحل الإيمان .

إذا ما فسد المجتمع كله ولم تعد هناك طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فلابد أن تتدخل السماء برسالة جديدة وبرسول جديد مؤيد بمعجزة من السماء ليوقظ الناس من هذا الفساد وينبههم إلى ذلك الفسق والفجور الذى لم يشمل الأفراد فحسب بل يشمل المجتمع كله .

رسول الله ﷺ عندما جاء وواجه هذا المجتمع الذى إنتشر فيه الكفر أفراداً وجماعات كان لابد أن يحدث تصادم بين الإيمان ومجتمع الكفر ذلك أن العداوة الشرسة التى واجهت رسول الله ﷺ واجهته من المنتفعين بالفساد فى الأرض ، والمنتفعين بالفساد هم السادة الذين إستفادوا من ضياع الحق وإنتشار الباطل فأخذوا حقوق غيرهم وإستعبدوا الناس ، وإستأثروا لأنفسهم بالخير ومنعوه عن باقى عباد الله ، والمنتفعون بالفساد يكرهون أى مصلح جاء ليعدل ميزان حركة الحياة فى الكون فلابد أن يقفوا فى وجهه ليدافعوا عن سيادتهم وعن أموالهم التى حصلوا عليها بالباطل والظلم .

لا وساطة فى التوبة
بين العبد وربه

« فَتَلَقَّى ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

(البقرة : ٣٧)

الله سبحانه وتعالى خلق التوبة .. وأنه يقبلها ولذلك فلا وجود وساطة بين الله وبين البشر ، ولا يوجد لإنسان بمفرده القدرة على أن يحمل عن البشر خطاياهم .. فالخطأ لآدم تم تصويبه . أما الخطيئة التى يرتكبها أى كائن من البشر فالخالق يعاقبه عليها .

ما فعله آدم ليس خطيئة إنما .. خطأ ، أما الخطيئة .. كالقتل ، وسفك الدماء ، والدس بين نفوس البشر ، وإثارة الوقيعة بين النفوس .. فالعقاب عليها إما فى الدنيا أو فى الآخرة ولذلك يقول الحق ..

« قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ »

{الأعراف : ٢٣}

كيف إستغفر آدم ربه ؟.. لقد تحدث آدم إلى ربه بإنكسار ولذلك تاب الله عليه ، وتساءل كثير من العلماء عن الكلمات التى علمها الله آدم حتى يقولها ويتوب عليه . قال بعض العلماء إن آدم قال .. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك ربى وبحمدك إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً فأغفرلى ياخير الغافرين .

وقال بعض آخر من العلماء أن آدم قال .. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك ربى وبحمدك ربى إنى ظلمت نفسى كثيراً فتقبل توبتى ياخير التوابين .

وإننا لا نقف عند نص الكلمات التى قالها آدم عليه السلام راجياً التوبة ، ولكن نقول أن آدم عليه السلام أقر بالطاعة المطلقة هى حق الخالق الأكرم فى التشريع . طاعة آدم إذاً هى إختيار وإنكسار وإعتذار ورغبة فى أن يقبل الله توبته محبة لله الخالق .

لو نظرنا إلى هذا الموقف وهو موقف طلب آدم التوبة وقبول الله لتوبته إنما هو وضع أساسى هام لمسيرة الإنسان .

أن مرتكب الذنب سوف يجد باب التوبة مفتوحاً فيقبل عليه بإنكسار ، ولا يتمادى فى معصيته فلو أن باب التوبة لم يكن مفتوحاً

لتاه كل صاحب معصية وفسدت الدنيا ، ولكن يجب ألا نقبل على طاعة الله بغرور وإستكبار ، ويجب ألا يخطئ أحد ذلك الخطأ الذى يقع فيه البعض فيقول بغرور حاشا لله وماذا لله عندى ؟.. انه ـ الله ـ له عندى العبادة ، وهاآنذا أعيده . إن الله لا يريد مثل هذا اللون من الإقبال على عبادته إن الله يجب أن يقبل الإنسان على عبادته وهو .. محب لله الذى فرض هذه العبادة .

الاستعاذة من التكاليف الإيمانية

كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يفتحان عن نفسيهما أبواب التكليف الإيمانى ، وإبراهيم خليل الرحمٰن يعرف أن كل تكليف هو خير لنفسه ولذريته ، وكذلك إسماعيل عليه السلام ، ولذلك فهما يريدان المزيد من الإستعاذة من التكاليف الإيمانية ، ولإنهما يريدان الخير لهما ولذريتهما من بعدهما فإنهما يطلبان التوبة .

قد يتبادر إلى الذهن أن هناك معصية قام بها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ولكن لنا أن نلاحظ أنهما يطلبان التوبة لهما ولذريتهما من بعدهما . إنهما يريدان أن ينقلا إلى من بعدهما حقيقة هى .. أن كل إنسان معرض للغفلة ، ولذلك فعليه أن يقبل على التوبة لله .

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يريدان أن يُعَلِمَا كل واحد من ذريتهما أن التوبة يمكن أن تغفر المعصية أو الغفلة ، وإياك أيها المؤمن

أن تتصور أن المعصية تبعدك عن الله .. لا .. إن المعصية إذا تبعتها التوبة الصادقة فإن الحق يقبلها والله يحب التوابين .

الله سبحانه وتعالى يعلم عن عباده الغفلة والمعصية حين تأخذ الإنسان من منهج ربه إلى نفع عاجل فإنه حين يستحضر ـ الإنسان ـ صفات الجبار والغفار فى الحق سبحانه وتعالى فإنه يستغفر الحق ويندم .

إن الذى يعصى الحق سبحانه ثم يذهب إلى الله تأدباً وندماً ويستغفر الحق فإن الله لا يغفر المعصية فقط ، ولكن يقلب السيئة حسنـة .

نحن نعرف أن تشريع التوبة قد صنع الخير فى المجتمع الإنسانى ذلك أن الإنسان المذنب لو لم يذهب إلى التوبة نادماً سيعيش أسير ذنوبه ، وقد أصبح محترفاً للمعصية وقد يضر المجتمع بما يفعله . أما تشريع التوبة فهو فرصة للإنسان العاصى أن يستغفر ربه ، ويعود لينتظم فى العبادة الإيمانية ، والحق حين يطلب التوبة فهو فى ذلك يرحمنا من شراسة المعصية .

* * *

لا تقنطوا
فإنه التواب

بعض السطحيين يظنون أن التوبة لا تتحقق إلا إذا حافظ عليها التائب ، ولم يرتكب بعدها ذنباً ، ونحن نقول إلى هؤلاء بقولنا .. لا .. لأن الله سبحانه وتعالى لم يقل .. إننى تائب فقط إنما قال .. أنا التواب ، والفرق بين تائب وتواب كبير فإذا قال الله .. أنا تائب فإن التوبة تقع مرة واحدة فقط ، ولكن عندما يقول .. أنا التواب فإن ذلك يعنى التعدد . فمن إرتكب ذنباً ثم يتوبُ وآخر إرتكب ذنباً فيتوب عليهما الله .

كلمة تواب تعنى .. التعدد أى تعدد مرات التوبة ، وكذلك تعدد الأفراد المتوب عليهم فصيغة المبالغة تأتى لأمرين هما .. الأول .. لزيادة فى نفس الحدث .. والثانى .. لتكرر فى صاحب الحدث .

فأنت مثلاً تقول .. فلان أكول أى يأكل مرات مثلى ومثلك ومثل الجميع كل يوم ، ولكن فى كل مرة يكون الحدث ـ وهو الأكل ـ عنده عظيماً ، ولكن تقول أن .. فلان أكال أى يأكل ويجوع بعد ساعة . فأنت تأكل يومياً ثلاث مرات ، ولكنه يأكل عشر مرات لكن حجم ما يأكله فى كل مرة لا يزيد عن ١٠٪ مما يأكله الشخص العادى بمعنى أن المقصود بصيغة المبالغة فى الفعل «أكال» تعنى تكرار الحدث ، والمقصود فى صيغة المبالغة فى الفعل «أكول» تعنى تعظيم الحدث .

الله عز وجل .. تواب ، ويعنى ذلك تكرار توبته على الحدث فى حالة تكراره أو تعظيمه وبهذا فهو .. تواب .

إسرعوا بالتوبة ..

من يضمن لك أن تعيش إلى أن تتوب ؟!.. ولهذا نجد المولى عز وجل قد أخفى الموت سناً وسبباً وكيفية لأن الموت قد جُهِل على هذا النحو فإن المرء يخشى أن يدركه الموت وهو على معصية فلا يلحق ركب التوبة والتائبين .

إن التوبة عن الذنب تكون من أصل الذنب بمعنى أن يندم الذين إتخذوا العمل آلهاً ، وأن يعقدوا العزم على ألا يعودوا لمثله أبداً ، وتشريع التوبة جاء هنا بعذ العفو لأن الله قادر على ذلك وأن يأخذهم بهذا الذنب فيعاقبهم عليه لكن الله عفا عنهم .

لذلك تكون دعوة موسى عليه السلام لقومه بالتوبة هى تشريفاً من الله ليغسل الإنسان قلبه من آثار الذنب الذى إرتكبه .

والدعوة للتوبة إلى الله وهو .. البارئ أى الذى أحسن هيئة كل منهم بعد خلقه ، وهذا البارئ هو الذى يجب أن نتوجه إليه بالتوبة .

فقد تأتى نفس لصاحبها بالإيمان وتهفو النفس إلى الهداية فتوبخ النفس صاحبها لحظة إستيقاظ الضمير ، ونحن نلاحظ أن الذين أسرفوا على أنفسهم طويلاً فى أيام شبابهم وغمروها بأسباب اللذة يأتون فى أيام الكهولة يريدون التوبة ويبدأون فى الندم .

وكثيراً ما نرى إناساً فى ظاهر الأمر أنهم أسرفوا على أنفسهم ، ويسألون عن طريق التوبة رغم أن أبواب العودة إلى الله مفتوحة دائماً ، والحق جل جلاله يقول ..

« قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

[الزمر : ٥٣]

هؤلاء التائبون يفتح لهم الله باب المغفرة بعد أن يلفظوا عن أنفسهم أسباب الغرور . أما أن يبقوا أسيرو أسباب الغرور فهؤلاء ينطبق عليهم أيضا أنهم قلة لا تؤمن .

الحق سبحانه وتعالى شاء ألا يعذب أمة محمد ﷺ مادام رسول الله فيهم وفى ذلك جاء الحق ليقول ..

« وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ »

[الأنفال : ٣٣]

الحق سبحانه وتعالى قد فضل أمة محمد ألا يعذبها ورسول الله ﷺ فيهم ذلك أن منهم من سوف يؤمن ويستغفر الحق ، ولذلك لم يشأ الحق أن ينزل الآيات التى طلبها بعض المتعنتين لأن الحق عندما ينزل آية ثم يكذبها أحد بعد ذلك فإن الحق يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

* * *

التوبة أمر ذاتى

الذين أنكروا أمر الدين فريقان ..

الأول .. فريق هم أهل الكتاب اللذين عرفوا الحق وأنكروه وأخفوه عن علم وعناء .

الثانى .. فريق آخر هم المشركون الذين إمتلأت قلوبهم بالشرك فإتخذوا أرباباً من دون الله .

أما الذين عرفوا براهين صدق رسول الله ، وتبينوا الحق فى دين الله ثم أخفوا هذه الدلائل وكتموها عن الناس فهؤلاء بعيدون عن رحمة الله .. وأولئك لهم اللعنة والغضب ويبعدهم الله عن رحمته .

الله جل جلاله لا يقفل باب الرحمة حتى عمن كفر لأن باب الرحمة مفتوح دائماً لكل من أراد أن يتوب إلى الله لذلك قال الحق ..

« إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

[البقرة : ١٦٠]

لنا أن نُعَرِّف التوبة بأنها أمر ذاتى يقوم بها الإنسان بنفسه .. ليقوم بها أمر نفسه فإن فعل ذلك فهو يصلح من أمره بقدر ما أفسد ويعلن للناس بمقدار ماكتم . أما الذين يصرون على الكفر والكتمان فأولئك لهم اللعنة .. والله يلعنهم لأن كتمانهم لأمر الحق سيورث العالم شراً ، وكما نال العالم شراً من كتمانهم تستمر عليهم اللعنة والإبعاد والطرد من رحمة الله .. فإذا تابوا وأصلحوا ما أفسدوا وأوضحوا الحق فهذا دخول فى باب .. المغفرة .

إذاً فشرط التوبة أن يعود كل حق لصاحبه وتلك المسألة مسألة الكفر وكتمان الحق لا يضار فيها الله ، ولكن ينال الضرر ومنها الناس الذين ينتشر بينهم شر الكفر شرور كتمان ما أنزله الحق فى الكتب السماوية .

الحق سبحانه وتعالى يوضح ثلاث حالات فى هذا الموقف وهو ..

« إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

والحالات الثلاث هى :

الأولى .. هى حالة الذين يكتمون ما أنزله الحق وهؤلاء لهم اللعنـة .

الثانية .. إستثناء من الحق لمن تاب ولم يمت والا على توبة الله .

الثالثة .. هؤلاء الذين يموتون ولم يتوبوا أولئك يجدد الحق لهم لعناً جديداً فى الآخرة .

إذاً فهناك لعن فى الدنيا إلى أن يتوب الذين يريدون التوبة ، ومن لم يتب ومات على ما كان عليه من كتمان فان لعنة أخرى يخصه الله بها يوم القيامة .

الحق سبحانه وتعالى يتكلم عن اللعنة فالمقصود بذلك هو الطرد والإبعاد بغضب وزجر .. والطرد نوعان ..

الأول .. الإبعاد للتأديب .

والثانى .. الإبعاد للتعذيب .

إبعاد التأديب لا ينزله الحق على أحد بغضب ، وإنما ينزله الله ليؤدب ذلك الإنسان . فالحق الذى يربى عباده لا يغضب على من يربيه وإنما يغضب لمن يربيه ، ولكن حين يتمادى عبد من عباد الله فى الكتمان وأن يواصل الباطل كمنهج وسلوك فذاك يبعده الله للتعذيب وهذا نوع آخر من العقاب .

والحق سبحانه وتعالى يفتح باب التوبة للعبد بقوله ..

« إلاَّ الَّذينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ »

الرجوع من المعصية

كلمة «تاب» فى اللغة تأتى من التوبة ، وعندما تقول .. تاب فلان إلى الله فأن المقصود بها أن العبد رجع عن عصيانه ورجع عن ذنبه ، وعندما تقول .. تاب الله على فلان فالمقصود بها أن الله قد قبل توبة العبد الذى رجع عن المعصية وكان مقدراً له أن يعذب فأعفاه الله من العذاب ، وهكذا يفهم أن التوبة كلها رجوع عن الذنب وعفو من الله فى العقوبة ، ولذلك فحين تنسب التوبة إلى العبد فمعنى ذلك أن العبد رجع عن الذنب واستغفر الحق .

وحين تنسب التوبة إلى الله فمعنى ذلك أن الله عفا عن العبد ورفع عنه عذاب الذنب الذى كان يجب أن يناله ، ويتساءل البعض عن قول الحـق ..

« وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

[التوبة : ١١٨]

إن الأمر هنا متعلق بما حدث فى غزوة تبوك وينسحب أيضا على كل موقف مثل الذى حدث . لقد خرج الرسول ﷺ وأصحابه الصادقون من المهاجرين والأنصار إلى الجهاد فى وقت الشدة وكانت تلك الغزوة التى حدثت فى زمن قيل عنه زمن العسرة وكان ذلك الجيش الذى خرج مع رسول الله قد سمى جيش العسرة ، وكانت هذه الغزوة فى السنة التاسعة من الهجرة بين المسلمين والروم وإنتهت بأن جاء واحد من كبار قوم الروم ليعاهد الرسول على دفع الجزية وعاد رسول الله بعد ذلك إلى المدينة .

ومن فرط شدة هذا العام أن بعضاً من المؤمنين حدثتهم أنفسهم بالتخلف عن المشاركة في الغزوة ، ولكن لم يتخلف بالفعل إلا ثلاثة هم .. هلال بن أمية ، ومرار بن الربيع ، وكعب بن مالك .

ولنتأمل دقة التأدب الإسلامى فى أن الرسول ﷺ لم ينشأ سجناً إسلامياً ليضع فيه المنحرف بل جعل المنحرف حراً طليقاً ، ولكن حريته بلا معنى لأنه كل المسلمين يقاطعونه .. وهذه هى العظمة . فالسجن مسألة محدودة القدرة ، ويعيش فيه المنحرف ويقضى وينتهى الأمر . أما أن يحيا المنحرف فى وسط المجتمع ويقاطعه كل المجتمع بأمر من رسول الله فهذه هى عظمة الإنسجام الإيمانى فى المجتمع الذى يرفض التعامل مع المنحرف .

لقد كانت غزوة تبوك كما ذكرت هى .. غزوة العسرة لأن فيها مشقة من كل جهاتها مشقة بعد المسافة بين تبوك والمدينة ، ومشقة أن

المجاهدين كانوا يتعاقبون كل عشرة على راحلة .. أى أن كل عشرة من المسلمين يسير تسعة منهم فترة من الوقت ويركب واحد فقط الفرس أو الجمل ، ولنا أن نتصور هذه القدرة من المشقة فى السير ، وكان هناك عسرة فى الزاد .. فقد قال بعض من شهدوا هذه الغزوة .. كنا نأكل بدوده ، وكنا نأكل الأهالة الزنخة (أى الشحم الذى مضى عليه فترة من الزمن) وكنا نذبح البعير لنشرب من سرته الماء وكان ذلك فى جو من القيظ والحرارة .

إذاً هى رحلة شاقة لذلك لم يخرج فى هذه الغزوة إلا الصادق فى يقينه ، والبعض قد راودته نفسه على ألا يخرج فى هذه الغزوة .

قال أحد المؤمنين وكان يملك بستاناً له ظل وشجر وثمار .. أأجلس فى الظل الظليل والراحة بينما رسول الله ﷺ فى القيظ ، ويستنكر المؤمن على نفسه هذا الوضع ويقوم مجاهداً مع الرسول .

ومؤمن آخر يملك ضيعة كبيرة فيها بستان كبير وظلال ، وجلس الرجل ينظر إلى بستانه وكأنه يحدثه .. أنت أيها البستان الذى منعتنى أن أكون فى ركاب رسول الله ، والله لا تكون ملكى بعد الآن وأنت والله فى سبيل الله .

وثالث يجلس فى الظلال الطيبة والثمار ويفكر فى المرأة الجميلة التى تزوجها ويقول .. أأجلس فى ظل ورطب ، وإمرأة حسناء ورسول الله فى جمرة القيظ ... وكان هذا الأمر كله إبتلاء إيمانياً .

بعض المنافقين تخلفوا فى هذه الغزوة ، وعندما جاء الرسول إعتذروا بأنهم لم يكونوا على قدرة للقتال .. فتركهم رسول الله على نيتهم ، وترك سرائرهم لله إلا ثلاثة صدقوا وقالوا .. يا رسول الله ما كنا أغنى منك ساعة أن دعوتنا للمشاركة فى القتال ، وهؤلاء قال عنهم الرسول ما معناه لقد صدق هؤلاء ، وكان لإعترافهم جدوى وفائدة لقد طلبوا .. العقاب .. بالإعتراف خوفاً من أن ينالوا العذاب يوم القيامة .. لذلك أبعدهم الرسول إبعاد التأديب وهم .. هلال بن أمية ، وكعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع .

لقد ترك رسول الله أمر عقاب المنافقين لله ليذيقهم العذاب يوم القيامة فقد كتموا ما يملكون عن المشاركة به فى الجهاد . أما الثلاثة الذين إعترفوا فقد أوقع بهم الرسول عقاب التأديب فمنع عن المجتمع الإسلامى أن يكلمهم أو يتعامل معهم ، ولذلك قال الحق عنهم ..

« حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ »

هكذا كان العقاب قاسياً .. وإستكان إثنان منهم وظلا فى بيوتهما وهما هلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع . أما كعب بن مالك فهو الذى ظل يخرج ويلقى الناس فلا يكلمه أحد ، ويذهب كعب بن مالك للصلاة مع رسول الله ويقول للمؤمنين .. إنظروا إنى أحرك شفتى الرسول برد السلام ، ولكن أحد المؤمنين لا يكلمه إمتثالاً لأمر رسول الله .

الرسول كان حينما يرى عينى كعب متجهتين إليه يغمض عنه ، وحينما ينصرف كعب ينظر إليه ، وفى ذلك إيضاح أن الرسول يؤدب كعب .

الدنيا ضاقت على إتساعها فى وجه كعب فذهب إلى إبن عمه أبى قتادة ، وتسلق حائط منزله لأنه يعرف أنه لو دق باب البيت فلن يفتح له ، وقال كعب لابن عمه .. أنشدك الله أن تعلم أننى أحب رسول الله .. ولم يرد أبى قتادة فظل كعب يلح إلى أن قال أبى قتادة .. الله ورسوله أعلم .

ومضت أربعون ليلة على هذا اللون من العقاب ، ويُصَعِّد رسول الله التأديب فيطلب من الرجال الثلاثة ألا يقربوا نساءهم ، وهكذا يدخل التأديب إلى الدائرة الخاصة بالرجل مع إمرأته بعد أن نجح التأديب فى تجربة عزل المجتمع الإسلامى عن هؤلاء الثلاثة ، فيقول كعب لرسول الله ﷺ .. أأطلقها ، ويرد الرسول ﷺ .. لا ولكن لا تقربها ، ويقول قوم كعب .. إذهب إلى رسول الله أو فلتذهب إمرأتك إلى رسول الله لتستأذنه فى أن تظل معك لتقوم على شئون بيتها فقد استأذنت إمرأة هلال بنى أمية رسول الله ، وحينما ذهبت لتسأل رسول الله ذلك الأمر فقال لها الرسول .. لا يقربك . فقالت .. يا رسول الله والله إن هلال ما به حركة لشئ .. فأذن لها الرسول أن تظل معه لتخدمه .

ويسمع كعب تلك الرواية من بعض الناس فيقول لهم .. ولكننى رجل شاب لا أطيق فراق زوجتى وأخاف أن أقول ذلك لرسول الله فلا يعطينى هذا الحق .

وتمر عشرة أيام إلى أن جاءت البشرى بالإفراج ويأذن له رسول الله بلقائه ويبلغه أن الله قد قبل توبته ونزلت هذه الآية الكريمة ..

« وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

[التوبة : ١١٨]

وهكذا كان إبعاد التأديب إن هؤلاء الثلاثة لم يخرجوا عن أوامر رسول الله ﷺ وجعلهم الرسول ﷺ أهلاً لأوامر يلقيها عليهم فمعنى ذلك أنهم لم يخرجوا عن دائرة الإيمان بالطرد أو اللعن .. لقد كان إبعادهم إبعاد تأديب .

* * *

التوبة رجوع العبد إلى ربه

ولنا أن نفهم أن التوبة حينما شرعها الله وقننها فذلك ليفتح باب الرجوع إليه ومن يرجع تقبل توبته .. إذاً هناك ثلاث مراحل للتوبة :

المرحلة الأولى .. هى تشريع الحق للتوبة .

والمرحلة الثانية .. هى أن يتوب العبد .

أما المرحلة الثالثة .. وهى أن يقبل الله التوبة .

وهكذا كان الدرس المستخلص من قصة هؤلاء الثلاثة الذين قال فيهم الحق سبحانه وتعالى ..

« ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ »

لقد شرع الله التوبة .. فإذا ما تاب العبد ورجع عن ذنبه فإن الله يقبل توبته وفى ذلك رجوع من العبد عن المعصية والذنب ، وفى توبة الحق عليهم رجوع عن العقوبة . أما الذين يكتمون الحق فهؤلاء يلعنهم الله لعناً دنيوياً ويلعنهم اللاعنون ، والحق قد أبهم اللاعنون فى قولـه ..

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْد مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ »

(البقرة : ١٥٩)

وهنا نفهم أن اللعنة عامة .. يلعنهم الناس وغير الناس أى يلعنهم كل شئ فى الوجود .. فإذا ما حبس الله الرى عن قوم لعصيانهم يلعنهم النبات لأنه حرم من الرى بسبب عصيانهم ، وتلعنهم الحيوانات لأنها حرمت السقيا بسبب عصيانهم ، وتلعنهم الملائكة لأنهم خالفوا الحق الذى تسبح له كل الأمكنة هذا اللعن هو .. لعن الدنيا .

أما لعن الآخرة فيوضحه الحق فى قوله سبحانه وتعالى ..

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »

(البقرة : ١٦١)

ذلك هو .. لعن الآخرة فالأشياء لا تلعن أحداً فى الآخرة لأنها لن تحرم من شئ فلا أى نبات ، ولا أى حيوان ولكن يكون اللعن من الله والملائكة والناس أجمعين ، ولكن أليس الناس هم بنى آدم من آدم وإلى أن تقوم الساعة .. أليس من هؤلاء الناس المؤمن والكافر ؟.. كيف إذا يلعن الكافر الكافر مثله ؟.. كيف يجمع الله المؤمنين الذين سيلعنون الكفار مع الكفار الذين سيلعنون الكفار أيضا ؟

لمن يسأل مثل هذه الأسئلة نقول له .. لقد خلق الله الدنيا وعاش فيها من خادع فى دين الله ، ومن عاش مخدوعاً فى دين الله ، وعاش فى الدنيا أيضاً من آمن بدين الله وأسلم وجهه وجوارحه لمنهج الحق ، وهؤلاء الذين أسلموا الجوارح لمنهج الله لهم الجنة وهم يعلنون الكفار . أما الكافرين الذين خادع بعضهم بعضاً أو إنخدع بعضهم بتضليل وإضلال البعض فإن أمورهم تنجلى فى الآخرة ، وهكذا ينفضح الخادعون ويسقط الأمر من يد المخدوعين .

خداع المضللين

الذين ينصاعون لخداع المضللين يأتون يوم القيامة فيتبرأون منهم ويتبادلون اللعن حيث أن كل فئة تتهم الأخرى بأنها لم تضلل إلا بهوى للضلال فى النفوس ، وهنا يعترف الأتباع منهم أنهم كانوا فى ضلال لأنهم إتبعوا قوماً ضالين مضللين وتكون أعمالهم حسرات عليهم ويندمون ويتبادلون العداء ويكون الجزاء جهنم خالدين فيها أبداً .

الذين يكذبون آيات الله ويستكبرون عن الاهتداء بها سيدخلون النار ليأخذوا العقاب ، وليس هناك أظلم من الذى يفترى الكذب على الله كما فعل أهل الكتاب الذين أنكروا صفات رسول الله المبينة بكتبهم وإدعوا أن لله أبناء هؤلاء يسألهم ملائكة الموت عندما تقبض أرواحهم .. أين الآلهة التى كنتم تعبدونها من دون الله لتمنع عنكم الموت ؟ فيقولون .. لقد تبرأوا منا وتركونا .. وهم بذلك يشهدون بكفرهم .

ويأتي يوم القيامة ليقول الله لهؤلاء الكافرين .. ادخلوا النار ضمن أمم من كفار الإنس والجن قد مضت من قبلكم ، وكلما دخلت إمة النار لعنت الأمة التى كفرت مثلها وإتخذتها لها قدوة حتي إذا تتابعوا فى النار مجتمعين لعن التابعون من إتبعوهم وطلبوا من الله أن يضاعف لهم العذاب فيقول الحق .. لكل منكم عذاب مضاعف لأن كل منكم ضل وأضل .. كفر وساعد على الكفر .

إذاً الكافر سيلعن الكافر مثله واللعنة ستكون موجودة من الناس أجمعين ، ونحن فى هذه الدنيا نجد الذين يكفرون بمنهج الله يتلقون اللعنة ، والمنحرف يظلم ويقابله فى يوم آخر منفلت آخر عن منهج الله فيظلمه وساعة أن يظلم هذا المنحرف ذلك المنفلت نجد أن كليهما لعن الآخر .. أى أن اللعنة تصدر من كل الناس لكل منحرف .

* * *

توبة السر والعلن

الحق سبحانه وتعالى حين يطرد عبداً من رحمته يغضب فذلك دليل إنه لا رجعة فى ذلك الأمر فالإنسان إذا ما تركه الحق لعذاب صامت تقوم به النار فقد تحدثه نفسه إنه ربما جاء من مَنْ هو مثله .. فيعطف عليه ويخرجه من النار .. ذلك الإنسان لن يرجو النار أن تكف عن عذابه لأنها صامتة لا عاطفة لها ..

التوبة فى الدنيا تسلم الإنسان وتنقذه من أن يعيش فى النار خالداً معذباً إذ قال الحق سبحانه وتعالى ..

« إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

{البقرة : ١٦٠}

أى أن الإنسان إذا أذنب ذنباً فلابد أن يصلح هذا الذنب من جنس ما فعل .. فإذا ما فعل ذنباً فى السر فيكفيه أن يتوب سراً . أما إذا إجترأ الإنسان على حدود الله فى العلن وعصى الله أمام الناس فإنه بذلك يكون قدوة سيئة لبشر يتعدون حدود الله لذلك هنا فالتوبة فى السر لا يقبلها الله إنما يجب أن تكون التوبة علنية .

الذنب فى السر لا يكسر به الإنسان حداً من حدود الله ولا يقلده فيها أحد . أما الذى يكسر حداً من حدود الله أمام الناس فهذا لا يقبل الله منه التوبة إلا بعد أن يعلنها أمام الناس .

الشريعة الإسلامية تدرأ الحدود بالشبهات لكن الذى يتعالا ويقر أنه ارتكب الذنب ويتفاخر بذلك فهل تتركه شريعة الإسلام ؟.. هل الذى شهد عليه أربعة فى الزنا مثلا .. فهل ندرأ عنه حد الرجم أو الجلد بالشبهة ؟.. لا لقد كسر الحد علناً لذلك لابد أن يقام عليه الحد علناً ، والذى ارتكب الذنب فى العلن عليه أن يتوب فى العلن .

عدل الرحمن الرحيم

إن لطف الله بعبده الإنسان أن خلق التوبة للذنوب وأن الذى يقبل التوبة هو التواب القادر على أن يتوب على المسلمين جميعاً ، وأن كلمة «التواب» هى اسم من أسماء الله الحسنى وهو اسم من متعلقات كمال الجمال فى الخالق المتعال .

العاصى الذى لم يتب إلى الله ولم يقبل الله توبته ينال عدل الرحمن فيأخذ قسطاً من عذاب النار ثم يخرج ، والذى تاب وآمن وعمل صالحاً فكل آيات الخلود بالنسبة للجنة أبدية ، ولكن فى مسألة النار فالتقنين للعذاب لا يشمل الخلود إلا لمن يستمرئ المعصية وإنكار ما جاء به الله ورسوله .

الحق سبحانه وتعالى قيد الخلود فى العذاب ليؤكد لعباده أن رحمته تسبق غضبه ، ففى مسألة تقنين العذاب يقول بعض السطحيين كيف يقول الحق أن فى النار شهيقاً وزفيراً فقد قال الحق سبحانه وتعالى ..

« يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِه فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ »

(هود : ١٠٥/١٠٨)

أن السطحيين يتشككون فى أن النار زفيراً وشهيقاً لأن الشهيق يأخذ به الإنسان فى الحياة الهواء ، والزفير يطرد به الهواء بعد أن يستخلص منه الأوكسچين اللازم للحياة ، والسطحيون يقولون .. وكيف يكون الخلود محدوداً بوجود السماء والأرض ؟ .

لهؤلاء نقول .. أن السموات والأرض فى الآخرة ليست هى السموات والأرض فى الدنيا . إن السموات والأرض فى الدنيا أسباب ومعاش ونحن فى الآخرة لا نأكل ولا نعيش بالأسباب إنما نحى بإرادة المسبب ، وقد يقول فرد لماذا يقول الحق ..

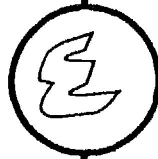
« إِلاَّ مَاشَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ »

لماذا يربط العذاب بالمشيئة .. والجنة بالمشيئة ؟ .

ولمثل هذا السؤال نقول .. إن الجزاء للذين شقوا بالنار ليسوا هم الكفار فحسب فهناك بعض المؤمنين العصاة الذين يدخلون النار على قدر حظهم من المعاصى ، وبعد ذلك يخرجون من النار إلى الجنة ، ولكن العاصى الكافر الذى لم يتب فله الخلود فى النار .

أما المؤمن العاصى فهو أيضاً لا يخلد فى الجنة إلا بعد أن يقتص منه الله بقدر ذنوبه لذلك جاء الاستثناء مرة فى النار ، وجاء الاستثناء مرة فى الجنة .





وإن لم تغفر لنا
وترحمنا
لنكونن
من الخاسرين

الغفور الرحيم

صفات جلال .

فى عرف الناس إيتاء الملك خير ، ونزعه شر ، والعزة فى عرف الناس خير ، وإذلالهم شر حيث يقول الحق ..

« اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

[آل عمران : ٢٦]

الحق سبحانه وتعالى لم يقل بيدك الخير والشر ، وإنما قال عن كل بيدك أى كل هذا خير إستغله فيما يرضى الله وإذا نزع منك الملك نقول لك .. خير ربما أغراك المُلكَ على المعصية والطغيان فنزعه الله سبحانه

منك لتتجه إليه ، وتبتعد عن الطريق الذى يؤدى بك إلى جهنم والعياذ باللـه .

إعزاز الله لنا نقول .. خير فقد يعزيك الحق فتقترب من الله ، وإذا أذلك الله نقـول .. خير حتى تعلم أن الدنيـا لا تدوم لأحد فتعمل لآخرتك . إذاً فإتيان الملك خير ، ونزعه خير ، وعندما تجد ملكاً كبيراً لشخص فإحذر أن تعتقد أن هذا الشخص قد أخذ الملك بجهده الذاتى أو بقدرة عقلية بل هو حصل عليه بقدرة الله ، وقدرة الله سبحانه فى حديث قدسى ..

« أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيها بيدى فإن أطاعنى عبادى جعلتهم عليهم رحمة وإن هم عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسبب الملوك ولكن أطيعونى أعطفهم عليكم »

لكل شئ حكمة

الناس لو راعوا الله فى كل أمورهم لكانت ملوكهم عليهم رحمة إذاً فلا أحد يأخذ الملك إلا بقضاء الله وقدره ، وكل شئ فى الوجود له حكمة فإذا رأيت ملكاً ظالماً آتاه الله الملك فلا تقل كيف يولى هذا الظالم الملك لأنك لا تدرى لِمَ آتاه الله الملك فربما جاء به ليربى أشرار طغوا وبغوا فالله

لا يربى الأشرار بالأخيار لأن الرجل الطيب سليم النية .. عطوف لا يمكن أن يربى إنساناً شريراً ، ولا يربى الإنسان الشرير إلا من هو أشر منه وفى ذلك قول الحق ..

« وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً »

{سورة الأنعام : ١٢٩}

وإذا كان هناك أشرار .. الله يولى عليهم من هو أشر منهم لأن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يسلط الله بها عليهم الشر فالظلم والطغيان بما قدمت أيديهم من شر وظلم وطغيان ، وتلك هى بأن الله قيوم قائم على كونـه .

الحق سبحانه يقول ..

« إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَمَالَكُم مِنّ دُونِ اللهِ مِن وَلِىٍ وَلاَ نَصِيرٍ »

{سورة التوبة : ١١٦}

مادام الله ملك السموات والأرض وهو الذى يحيى ، وهو الذى يميت فاحذر أن تفتن فى غير خالقك وتحسب أن القوة والقدرة فى يد الخَلق وليست فى يد الخالق .. فالخلق مهما بلغوا من طغيان لا يستطيعون حماية أنفسهم من أقدار الله فى كونه فالإنسان يكون حاكماً له .. نفوذ وطغيان وجبروت ، وغداً قد يكون .. عاجزاً عن حماية نفسه يبحث عن ملجأ يحميه من بطش الناس فلا يجده ، وعن مكان يقيم فيه

فتضيق عليه الأرض بما رحبت . إذاً فلا تتخذ ولياً ولا نصيراً من البشر ، ولكن الله هو المولى والنصير وحده لأنه سبحانه وتعالى القوى والقادر دائماً .

اللجوء إلى الله

الإنسان يلجأ إلى الله يشكو له ظلم خلقه ويلجأ إلى الله ليحميه من النار لماذا ؟.. لأن الله سبحانه وتعالى .. له صفات جلال ، وصفات جمال .. فمن صفات الجلال .. القهار ، والجبار ، والمنتقم . ومن صفات الجمال .. الغفور ، والرحيم .

فإذا أذنب إنسان يكون المجال لصفات الله الجلال أى المنتقم الجبار ، ومادام الأمر لصفات الجلال فلا مجال للنجاة منها إلا باللجوء لصفات الجمال ، ولذلك يقال أعوذ بك منك أى أعوذ بصفات الجمال فيك من صفات الجلال بك . إنه لا يوجد من يحمينى من صفات جلالك إلا صفات جمالك .

إذاً كانت آخر ليلة من رمضان يتجلى الجبار بالمغفرة ، والناس يظنون أن المسألة ليست منطقية كيف يتجلى الجبار بالمغفرة ؟.. ألا يتجلى الله بالمغفرة ؟ نقول .. لا لأن المغفرة تقتضى ذنباً ، والذنب يقتضى خضوعاً لصفات الجلال من الله ، والجبار من صفات الجلال فتأتى صفة من صفات الجمال تأخذ من صفة الجبار سلطتها فكأن صفات

الجمال تشفع عند صفات الجلال . فيتجلى الجبار بالمغفرة ولا يتجلى الغفار بالمغفرة ، ولذلك قال الأصمعى عندما ذهب إلى الكعبة ليتوب سمع واحداً عند باب الكعبة يقول .. «والله ما أستحى أن أطلب منك يارب المغفرة لأنى عصيت ولكنى تطلعت فلم أجد إلهاً سواك يغفر لى» .

فقال الأصمعى .. «ياهذا إن الله يغفر لك لحسن مطلبك»

ويقول الحق سبحانه وتعالى ..

« ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »

{التوبة : ١١٨}

ومادام الحق قد تاب عليهم فلماذا جاء بقوله .. «ليتوبوا» .. نقول إنك أخذت التوبة من حكاية الذنب ، ولكن قول الحق سبحانه .. «ليتوبوا» أى ليعودوا إلى ما كانوا عليه قبل المعصية .

والحق سبحانه وتعالى يقول ..

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »

{التوبة : ١١٩}

* * *

إتقوا الله

الحق سبحانه وتعالى عندما ينادى عباده المؤمنين إنما يناديهم بحكم إيمانى أو يطلب منهم الإيمان مثل قوله تعالى ..

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا »

{النساء : ١٣٦}

الحق سبحانه وتعالى مادام خاطبهم مؤمنون فكيف يطلب منهم أن يؤمنوا ؟.. نقول أن الله جل جلاله يريد منهم المداومة على الإيمان لأنه من الممكن للإنسان أن يؤمن ثم يرجع عن إيمانه ، ولذلك فالإيمان موجود فيهم ولكن الله يطلب إستمراره ، والحق سبحانه وتعالى يقول ..

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتَّقُوا اللَّهَ » {البقرة : ٢٧٨}

أى أنه يامن آمنتم بالله إتقوا الله أى إجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، ولكن المفروض أن يكون المؤمن فى معية الله فكيف يطلب الحق سبحانه وتعالى منا أن نجعل بيننا وبينه وقاية ؟.. نقول إن المعنى أن إجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية .

الحق يقول ..

« وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ »

والعلماء قالوا .. إن المعنى كونوا من الصادقين ، ونقول أن هناك فرقاً بين .. مع الصادقين ، و .. من الصادقين . فمع الصادقين معناها .. إلتحموا فتكونوا فى معية الله فإذا جاء من بعدكم وجدوكم من الصادقين . إذاً فمع الصادقين سابقة لمن الصادقين لكن من هم الصادقون ؟.. ونجد أن .. ص ، د ، ق .. أى صدق تدل على أن هناك نسباً يجب أن تتوافق فما معنى هذه النسب ؟.. نقول أن الإنسان حين يتكلم فإنه قبل أن ينطق بالكلمة فإنها تمر على ذهنه ثم ينطقها إذاً فالكلمة قبل أن تكون نسبة كلامية تكون نسبة ذهنية ، فإذا أردت أن أقول محمد زارنى قبل أن تسمع لسانى ينطق بهذه العبارة فإنها تمر على ذهنى أولاً والمستمع لا يدرى شيئاً عنها ولكن المتكلم يعرف فإذا قلت لى كلاماً إعلم أن النسبة الذهنية جاءت إلى عقلك فترجمها لسانك إلى نسبة كلامية فلما سمعها السامع عرف النسبتين .

قد تكون هذه النسبة صحيحة وواقعة مثلما تقول .. محمد زارنى أمس ، ويكون ذلك واقعاً فتكون صادقاً . إذاً فالصدق أن تطابق النسبة الكلامية الواقع فهناك نسبة ذهنية ونسبة كلامية ونسبة واقعية فإذا تطابقت النسبة الكلامية مع الواقع فذلك هو .. الصدق ، وإذا لم تتطابق فذلك هو .. الكذب فكل كلام تقوله يحتمل الصدق والكذب إن كان واقعاً فهو .. صدق ، وإن لم يقع فهو .. كذب ، ولكن إن كان هناك نسبة واقعية تحدث بعد الكلام كأن تقول لشخص .. سأزورك غداً فإن كانت واقعاً سيحدث فهى .. صدق ، وإن كانت مجرد كلام لن يحدث فهى .. كذب .

الصدق هو الذى يجمع كل خصال الإيمان فالرجل البدوى الذى ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له .. يا رسول الله فِيَّ ثلاث خصال لا أقدر عليها الأولى هى .. النساء ، والثانية هى .. الخمر ، والثالثة هى .. الكذب ، وقد جئتك يا رسول الله لكى تختار لى خصلة من الخصال الثلاث أتوب عنها فقال له رسول الله .. «كن صادقاً وما عليك» فلما جاء خصلة شرب الخمر قال .. وإن سألنى رسول الله ﷺ .. «أشربت الخمر أو لم تشرب» ماذا أفعل ؟ لابد أن أقول له .. فأمتنع عنها ، وعندما سألنى رسول الله ﷺ .. «ماذا فعلت مع النساء» ماذا أقول ؟ .. فأمتنع عن النساء وهكذا منعه الصدق عن المعاصى ، ولذلك عندما سأل رسول الله ﷺ .. «أيسرق المؤمن ؟ قال .. نعم أيزنى المؤمن ؟ قال .. نعم أيكذب المؤمن ؟ .. قال .. لا» .

قول الحق سبحانه وتعالى .. « كُونُوا مَعَ الْصَادِقِينَ » أى لابد أن يكون كلامكم مطابقاً لواقع فعلكم .. إياك أن تقولَ كلاماً وفعلك ينفى ولذلك يقول الله ..

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ »

[سورة الصف : ٢/٣]

* * *

الإيمــان شــرط لقبول العبادة

الله سبحانه وتعالى تكلم عن المؤمنين الذين إشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، تكلم عن صفات هؤلاء المؤمنين فقال جل جلاله .. «التائبون» .. والتوبة هنا معناها أنهم رجعوا إلى إيمان الفطرة بعد أن طرأت عليهم الغفلة وقال الله .. «العابدون» وتعنى العبادة .. طاعة الله فى كل ما أمر به ، والإمتناع عما نهى عنه ، وقال الله .. «الحامدون» .. أى الذين يستقبلن كل قدر الله عليهم بالحمد والرضا لأن الذى يُجرى عليهم القدر حكيم ، ولا يجرى عليهم إلا ما كان فى صالحهم ، وإذا إستقبلنا الله بالرضا ألهمنا الحق سبحانه الحكمة منها ، وقال الله .. «السائحون» فى الأرض هو السير فيها .

تدبروا الملكوت !!

هناك سير لإعتبار التفكر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض ، وفى آيات الله فى كونه زيادة فى تأكيد الإيمان ، وهناك سير أو سياحة للأستثمار ليبتغى الإنسان من فضل الله ، وهناك سياحة للترفيه يزور الإنسان فيها أقطار الدنيا ليشاهد الآثار أى أن سياحة الأستثمار خاصة بالرجال هم الذين يضربون فى الأرض من أجل المال والرزق ، وسياحة الإعتبار أمر مشترك بين الرجل والمرأة بدليل أن الله سبحانه قال فى وصف النساء ..

«عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً».

[سورة التحريم : ٥]

السائحات هنا إما أن أن تكون سياحة إعتبار أو سياحة فى صحبة الزوج ، والسياحة أطلقت على الصيام لأن السياحة تخرجك عما ألفت من إقامة فى وطن ومال وأهل ، والصيام عما ألفت من طعام وشراب وشهوة . إذاً فهما مشتركان فى الإخراج عن إلف العادة .

وقول الحق سبحانه وتعالى .. « الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُون » أى المقيمون للصلاة فالركوع والسجود أمران لا يحدثان إلا فى الصلاة ولذلك يقول الحق ..

« يَامَرْيَمْ إقْنُتِى لِرَبّكِ وَاسْجُدِى وَارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعِينَ »

{سورة آل عمران : ٤٣}

أى أن الحق سبحانه وتعالى يطلب من مريم عليها السلام أن تكون من المصلين ، وحركة الصلاة هى التى يحدث فيها الركوع والسجود ثم يقول الحق ..

« ٱلآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ »

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مكلف بهما أمة محمد ﷺ مصداقاً لقوله تعالى ..

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ »

{سورة آل عمران : ١١٠}

ولنأمر بالمعروف ..

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يمكن أن يتما إلا إذا ألزمت نفسك بمنهج الله فليس من المعقول أن تأمر بشئ وأنت لا تفعله أو تنهى عن شئ وأنت تزاوله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر صلاح وهدى متعد من النفس إلى الغير بعد أن تكون النفس قد ألتزمت به ،

ويقتضى أن تعرف المعروف الذى تأمر به ، وتعرف المنكر الذى تنهى عنه . إذاً لابد أن تكون من المتخصصين فى معرفة أحكام الله ، ومعرفة حدود الله حلالاً وحراماً أما أن يأتى إنسان لا يعرف شيئاً عن الدين ويقول أنا اأمر بالمعروف وأنهى عن المنكر فقل له .. إحترم دينك على الأقل إحتراماً لدنياك فكل عمل لابد أن يزاوله آل فكر ومتخصصون فيه .

ماهى الحدود ؟

يقول الحق جل جلاله .. « وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ » .. والحدود جمع حد وتأتى فى القرآن الكريم على معنيين ..

الأول : المحافظة على أوامر الله وفى ذلك يقول الله ..

« تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا »

{البقرة : ٢٢٩}

ويعنى ذلك أن كل أوامر الله هى .. حدوده فلا تتعدى تلك الحدود .

والثانى : أن يكون القول فيما نهى عنه الله ، وفى هذه الحالة يقول الله .. فلا تقربوها مصداقاً لقوله .. «تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا» . لأن ما نهى الله عنه فيه إغراء للنفس البشرية إقتربت منه فستقع فيه .

الحق سبحانه وتعالى أعطانا أوصاف المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالجنة حيث قال .. «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» أى أن الذين يسلكون هذا الطريق ويضحون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ويكون سلوكهم طبقاً ليقين الإيمان فهؤلاء لهم البشرى من الله سبحانه وتعالى أى لابد أن تتم كل هذه العبادات عن إيمان صادق بالله وليس عن نفاق أو رياء أو سمعة أو غير ذلك ، ولذلك لو أدى المنافقون والمراءون كل هذه العبادات فلا أجر لم لأنهم لم يؤدوها إيماناً بالله لأن الإيمان شرط سابق لأى عمل يتقبله الله فلابد أن يكون العمل خالصاً لوجه الله .

هؤلاء المؤمنون يبشرهم الله أى يعدهم الله بأشياء ستسر أنفسهم ، وتجعل وجوههم متهلله البشرة ناطقة بالسرور .

ويتحدث الحق تبارك عن شئ شغل بال المؤمنين الذين لم يؤمن آباؤهم وظلوا على الكفر فما هى حقوق الأبوة فى هذه الحالة ؟

* * *

الالتزام

الحق سبحانه وتعالى جعل القرابة فى الإسلام قرابة .. الدين وليست قرابة .. النسب ، وجعل الأخوة فى الإسلام أخوة .. دين وليست أخوة نسب ، ولذلك فلا قرابة بين أخ مؤمن وأخ كافر ذلك لأن ولاءنا وحبنا لله سبحانه وتعالى أولا ، وحقوقه جل جلاله أولى من قرابة الدم فإياك أن تأخذك عاطفة الحنو والرحمة بالنسبة لأب أو لأخ كافر ، وتستغفر له وتحسب أن ذلك من البر لأن الله سبحانه أولى أن تكون باراً به من أبيك أو أخيك . إقرأ قول الله سبحانه وتعالى ..

« وَمَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ »

(التوبة : ١١٣)

الأمر هنا لرسول الله ﷺ ، ومادام الله قد بدأ برسوله عليه الصلاة والسلام فمن باب أولى المؤمنين لأن الله سبحانه وتعالى لو أراد أن يكرم أحد من الآباء من أجل أحد من الأبناء لكرم أنبياءه أولاً . فكلمة .. «ماكان» تعنى أى لا ينبغى أن تفعل شيئاً أنت قادر أن تفعله ، ويقال أيضا ما كان لك أن تفعل إذا كنت غير مؤهل أن تفعل شيئاً فقد تأتى لشخص فقير جداً وتقول له .. ما كان لك أن تشترى جهاز ڤيديو أى انك لا تستطيع أن تشترى فيديو،وتقول لشخص ما كان أن تشترى أى ما ينبغي لك أن تشترى فيديو إذاً فهناك فرق بين نفى الإمكان ونفى الإبتغاء .

قول الحق سبحانه وتعالى .. « بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .. كيف عرفوا أنهم أصحاب الجحيم ؟ بأنهم ماتوا على الشرك أو الكفر فأصبحوا يقيناً أصحاب جحيم أو أنهم مصرون على الشرك أو الكفر فأصبحا أيضا أصحاب الجحيم . إذاً ففى كلتا الحالتين سواء أصروا على الكفر أو ماتوا عليه لا يصح أن تستغفر لهم وأنت منهى عن هذا الاستغفار .

بعض الناس يأتى ليقولون .. إبراهيم عليه السلام إستغفر لأبيه والحق سبحانه وتعالى يقول أن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه ..

« سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىَ إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيّاً »

{مريم : ٤٧}

الحق سبحانه وتعالى يحب إبراهيم عليه السلام وربما يكرمه فى أن يغفر لأبيه ، والحق سبحانه يقول أن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه وتقول قبل أن تثير هذا الاعتراض إقرأ قول الله جل جلاله ..

« وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ »

(التوبة : ١١٤)

إبراهيم عليه السلام له صفات خير كثيرة جداً لدرجة أن خالقه سبحانه وتعالى يقول عنه ..

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً »

(النحل : ١٢٠)

صفات الخير لكل الناس

خصال الخير لا توجد مجتمعة فى شخص واحد أو إثنين أو ثلاثة بل أن صفات الخير موزعة على الناس كلهم هذا فيه الأمانة ، وهذا فيه الصدق ، وهذا فيه الشهامة ، وهذا فيه الحلم ، وهذا فيه الكرم ... الخ ، ولكن لا يمكن أن يجمع شخص واحد كل خصال الخير فيه ، والله سبحانه وتعالى ينشر خصال الخير فى خلقه حتى يوجد تكافؤ الفرص . كذلك المهن والحرف والعبقريات والمواهب منشورة بين الناس حتى يلتحم المجتمع

فلا يستطيع إنسان بمفرده أن يفعل شئ بل المجتمع متعدد المواهب لنحتاج إلى بعضنا البعض ونتماسك .. ويأتى الحق سبحانه وتعالى ويقـول ..

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً »

إذاً فخصال الخير التى تتفرق فى الأمم قد جمعت فى إبراهيم عليه السلام مادام جامعاً لصفات الخير حتى يأتى له تكليف من الله ينفذه بعشق ، وليس لمجرد أداء التكليف ، وإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى ..

« وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ »

(البقرة : ١٢٤)

أى أدى ما كلف به بتمام وكمال وعشق ، وأراد الله أن يكافئه على ذلك فقال جل جلاله ..

« إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً »

(البقرة : ١٢٤)

تلك القدوة الحسنة

وإماماً يعنى قدوة أو أسوة للناس لأنه جامع لخصال كاملة فيصبح أسوة للناس كلهم ، والأسوة أو القدوة لابد أن تكون من نفس الجنس

الذى تعيش معه وبقدراته فلا يأتى الله ويجعل الملائكة أسوة للبشر لأن المَلَكّ له قدرات لا تتساوى مع البشر فهو مخلوق من نور غير قادر على المعصية يفعل ما يأمره به الله ولذلك فهو لا يصلح أسوة لنا لأن قدراتنا أقل من قدراته فكيف نفعل مثله ؟.. وهذا ما يبطل دعوى الألوهية لعيسى عليه السلام لأنه لو قال عيسى .. إفعلوا كما أفعل لتصلوا إلى رضا الرب .. نقول له لا نستطيع لأنك إله ونحن بشر . إذاً فدعوى الألوهية لعيسى تنقض أن يكون أسوة للناس لأنه لابد للأسوة والقدوة من الإتحاد فى الجنس ولذلك يقول الله جل جلاله ..

« وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَّسُولاً »

{الإسراء : ٩٤}

إنهم متعجبون أن يبعث الله رسولاً من البشر ، ويطلب الحق سبحانه من رسوله أن يرد عليهم بأنهم لم يفهموا الحكمة من بشرية الرسول .

* * *

الهداية والتقوى

رسول الله ﷺ بشير ونذير لا يقدر على قهر قلب على الإيمان ، وإنما هو يبشر الناس بالمنهج فمن يؤمن فإن الله يزيده هداية .. وأنت أيها الرسول الكريم تهدى إلى صراط مستقيم .. أى ترشد الناس إلى الدين القيم .

الهداية .. الله هو المختص بها فمن أقبل على الإيمان زاده الله هدى إلى الصراط المستقيم ، ونحن حين نستحضر الآيات التى شاء الله فيها أن يهدى قوماً وألا يهدى قوماً آخرين فنجد الحق سبحانه وتعالى يقول ..

«إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لا يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

[النحل : ١٠٤]

الكافرين بآيات الله لا يهديهم الحق بل يتوعدهم بالعذاب الأليم .. إذاً فالحق يهدى من آمن به فيعينه على مزيد من الإيمان والهداية . أما الكافر بآيات الله فلا هداية له والحق سبحانه وتعالى يقول ..

« أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » [التوبة : ١٠٩]

والحق يوضح لنا المقارنة بين الذى يؤسس بنيان حياته على تقوى من الله إبتغاء للخير والجنة ، وبين الذى يؤسس بنيان حياته على جرف متصدع آيل للسقوط فسقط به البنيان فى نار جهنم .. ذلك هو الظالم المنافق الذى يريد السوء بالمؤمنين .

والحق تبارك وتعالى يقول ..

« اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ واللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » [التوبة : ٨٠]

أى أن الحق يبلغ رسوله أنه مهما إستغفر للمنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر فلن يغفر الله لهم لماذا ؟.. لإنهم يكفرون بالله ورسوله والله لا يهدى مثل هؤلاء القوم الفاسقين الخارجين بقلوبهم عن منهج الله .. هكذا تعرف الهداية من نصيب من آمن أما الذى لا يؤمن فلا هداية له .

رحمة الله

إن الإنسان قد يتساءل .. ألم يكن الإيمان وحده كافياً لينال الإنسان رحمة الله .. فلماذا إذن الهجرة والجهاد فى سبيل الله حتى ينال الإنسان رحمة الله ؟

لمثل هذا القول نقول .. إن الهجرة كانت بأمر الله والجهاد فى سبيل الله من تبعات الإيمان به ، ورجاء الرحمة من الله . إياك أيها المؤمن أن تظن أن كل أعمالك التى قمت بها قد تيقنت من أنها صحيحة . إن الإنسان قد لا يفطن إلى بعض من ذنوبه التى لم يحسن التوبة فيها أو التوبة عنها .

وليس كل عمل من الأعمال يقوم به الإنسان يستحضر فيه النية والإخلاص لله لأن النفس قد تغفل ، ولذلك فرسول الله وهو سيد الخلق

وسيد الموصولين بالله يقول فى دعاءه:

«اللهم إنى استغفرك عن كل عمل أردت
به وجهك فخالطنى فيه ما ليس لك» .

الرجاء من الله

إن الرسول الكريم وهو .. سيد المحتسبين فى كل أعماله يعلمنا أن النفس قد تخالط الإنسان ، والمؤمن الذى يثق فى ربه لا يقول أبداً .. أن الله يحب أن يجازينى الخير ، ولكن المؤمن هو الذى يرجو من الله حسن الجزاء لماذا ؟.. لأن أصل عبادة المؤمن لله سبق أن نال الإنسان ثمنها بداية .. فهو موجود من عدم ، وممدود من عدم ، ومستمتع بكل هذه الأشياء ، ولو قارن الإنسان ما فرضه الله عليه من تكاليف إيمانية لوجد أنه يستفيد من هذه التكاليف أضعاف أضعاف الذى لا يقوم بها .. لذلك فكل ما يجازى به الله هو الفضل وهو الزيادة .

كل رزق للإنسان إنما هو محض الفضل ، ومحض الفضل يرجى ولا يتيقن وهاهو قول الحق ..

« ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » [الأعراف : ٥٥/٥٦]

إن كل الدنيا مسخرة تحت قهر الرحمن ومشيئته وتسخيره له تمام التصرف فى كل الكائنات ، وهو الخالق المبدع .. لذلك فليدع الإنسان فى خشوع وخضوع فى السر والعلانية ، والحق لا يحب من يعتدى بالقول أو الرياء أو الإدعاء .

والإيمان يجب أن يكون خالصاً لله فلا يفسد الإنسان الأرض بالشرك أو المعصية لأن الحق وضح منهج لصلاح الدنيا وهو .. القرآن ورسالة رسول الله ﷺ ورحمة الله قريبة من المطيعين للحق جل وعلا .

إن عظمة الرب فى أنه يُرَغِبَ ويُرَهِّبْ .. فان رغبت فيه ولم ترهبه فعملك غير مقبول لإن الرغب والرهب مطلوبان معاً . لذلك فالمؤمن المجاهد فى سبيل الله يرجو رحمة الله .

قد يسأل سائل .. ما معنى الرحمة ؟.. نقول .. أن الرحمة هى ألا يبتلى الإنسان بالأمر المؤلم أو الأمَر وهو خلاف الشفاء الذى يعالج الألم ويزيله .. وقد أراد الله لمنهجه القرآن أن يكون الشفاء والرحمة فيقول الحق جل شأنه ..

« وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً »

{الإسراء : ٨٢}

لقد أراد الله بنزول القرآن أن يشفى القلوب من أمراض الجهل والضلال ويزيل صدأ الغفلة والهوى والضياع والتعاند بين الإنسان

والكون ، ولقد أراد الله بالقرآن أن يبرئ الإنسان من أمراض الغفلة بالقرآن الكريم ، وأراد أيضاً أن ينبه البشر فلا يصيبهم الداء . أما الظالمون فهم الذين يظلمون أنفسهم بعدم إتباع منهج الشفاء والرحمة .

إذاً فالمؤمن يرجوا رحمة الله .. لكن لماذا يؤكد الحق ..

« وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

الله يعرف عن عباده أن أحد منهم قد لا يتبرأ من أن يكون له ذنب فالحق لو حاسبنا بالمعايير المضبوطة تماماً فلسوف يتعب الإنسان ، ولذلك فهناك الدعاء الذى نقوله دائماً ..

«اللهم بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان ، وبالخير لا بالحساب» .

ومن هذا يعلمنا رسول الله ﷺ أن دخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها لكن بفضل الله ورحمته ومغفرته والرسول الكريم يقول ..

«لـن يدخـل أحدكم الجنـة بعمله فقالـوا .. ولا أنـت يارسول الله قال .. ولا أنا حتى يتغمدنىالله برحمته» .

صدق رسول الله .

إذاً .. فالمؤمن يرجوا من الله ولا يشترط على الله ، بأن يتجه المؤمن بعمله خالصاً لله يرجو التقبل والمغفرة والرحمة وكل ذلك من فضل الله .

المغفرة لمن ؟

نحن أمام نوعين من البشر .. هؤلاء الذين ثقلت كفة الخير لهم فى ميزان الحساب ، وهؤلاء الذين ثقلت كفة السيئات والشرور فى ميزان الحساب .. فماذا عمن تساوت الكفتان فى أعمالهم ؟ أنهم أصحاب الاعراف الذين ينالون المغفرة من الله لأن مغفرته وهو .. الرحمن الرحيم سبقت غضبه ، ولو لم يجئ أمر أصحاب الأعراف فى القرآن لقال قائل .. لقد قال الله لنا خبر الذين ثقلت موازينهم وأخبار الذين خفت موازين الخير عندهم ولم يقل لنا خبر الذين تساوت شرورهم مع حسناتهم .

الحليم الخبير قد أوضح لنا خبر كل أمر ، وأوضح لنا أن المغفرة تسبق الغضب عنده وهو الحق سبحانه وتعالى ذلك فالحساب لا يكتفى الحق فيه بالعلم فقط ، ولكن بالتسجيل الواضح الدقيق لذلك يطمئننا الحق فيقول ..

« وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً »

{الإسراء : ١٣/١٤}

الطمأنينة

إن الحق يطمئنا على أن ما نصنعه من خير نجده فى كفة الميزان ، ويطمئننا أيضا الحق على ما يصنعه المقابلون فينا من شر وإننا سنأخذ من حسناتهم لتضاف إلى ميزاننا . إذاً فالطمأنينة جاءت من الطرفين .. طمأننا الحق على ما فعلناه من خير فلا ينسى ويدخل فى حسابنا ، وطمأننا أيضاً على ما أصابنا من شر من الاشرار فسيأخذ الحق من حسناتهم ليضيفها لنا .

نحن نجد فى الكون أن كثير من الناس يحبهم الله لخصلة من خصال الخير فيهم ، وقد تكون هذه الخصلة الخيرة باهتة فلا يراها أحد فى فرد من هؤلاء الناس لكن الله الذى لا يخفى عليه خافية يرى هذه الخصلة فى هذا الإنسان ويحبه الله من أجلها .

ويرى الحق ذو الفضل أن حسنات هذا الرجل قليلة فيجعل بعض الخلق يصيبون هذا الإنسان بشرورهم وسيئاتهم حتى يأخذ من حسنات هؤلاء ليزيد فى حسنات هذا .

عندما يقول الحق سبحانه وتعالى .. « فَيُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءَ » .. فمن هم ؟ لقد بين الله من يشاء المغفرة لهم وهم ..

- أنهم الذين تابوا .
- هم الذين أنابوا إلى الله .
- وهم الذين قال فيهم الحق ..

« إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً »

{الفرقان : ٧٠}

فضـل اللـه

إن مسألة تبديل الحق السيئة حسنة هى مسألة جديرة أن يقف عندها الإنسان المكلف من الله وقفة لكى يرى فضل الله . إن الإنسان الذى صنع سيئة ثم أحدثت ألماً لهذا الإنسان كيف ينظر الله إلى سيئتـه ؟ .

الحق سبحانه وتعالى ينظر إلى العبد التائب الذى يتألم لسيئاته وكلما أحدثت السيئة ألماً من الذى إرتكبها وحزن منها فإن الله يكتب له حسنة ، ولكن الذى لم يصنع سيئة لا تلدغه فهو آمن .

أيها المؤمن .. إنك لتجد الخير الشائع فى الوجود كله ربما كان من أصحاب الإسراف على أنفسهم فى شئ ما فيكون الفرد الواحد منهم قوياً

فى كل شئ إلا إنه ضعيف أمام مسألة واحدة ، وهذا الضعف أمام المسألة الواحدة تجعله يزيد فيها ، وفى نفس الوقت تجد هذا الضعيف فى مسألة واحدة يحاول جاهداً فى النواحى التى ليس ضعيفاً فيها .. أن يسرف كثيراً من حسناته حتى يعادل الله هذه بتلك .

إذاً فالخير الشائع فى الوجود ربما كان من أصحاب السيئات الذين أسرفوا على أنفسهم فى ناحية من النواحى فيشاء الله سبحانه وتعالى أن يجعلهم متجهين إلى نواح كثيرة من الخير قائلين .. ربما هذه تحمل تلك .

لكن الذى يظل ولا تلدغه معصية ربما تظل المسائل فاترة فى نفسه ، ولذلك يجب أن ننظر إلى الذين أسرفوا على أنفسهم لا ننظر إليهم من زاوية واحدة ، ولكن أن ننظر إليهم من زوايا متعددة ونتأدب أمامهم وندعوا الله أن يعفيهم مما نعرفه عنهم وأن يبارك لهم فيما قدموه ليزيل الله عنهم أوزار ما فعلوا .

بعض العلماء يرى رؤية جميلة فى قول الحق سبحانه وتعالى ..

« فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ »

أنهم يرون أن الله بفضل رحمته جعل المغفرة إختياراً فيغفر الله للعبد الذى يشاء ويختار أن يغفر الله له . إن هؤلاء العلماء يرون أن الله قد جعل المغفرة أمراً متعلقاً بالعابد لله ، وإن شئت أن يغفر الله لك فأكثر من الحسنات حتى يبدل الله سيئاتك إلى حسنات وإن شئت أن تعذب فاصنع السيئة .

وختاماً

رسول الله ﷺ وهو رحمة للعالمين مستغفر دائماً للعصاة من أمته لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى .. «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ» أى ارتكبوا ذنوباً كثيرة ..

« جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً »

(النساء : ٦٤)

إذاً فالذى يريد أن يتوب ، ويستغفر لا يستغفر له رسول الله ﷺ إلا إذا إستغفر مرتكب الذنب أولاً . إذاً فلابد أن يستغفروا الله من الذنوب أولاً ثم يستغفر لهم الرسول ولا يستغفر لهم الرسول وهم لا يستغفرون .

والحق سبحانه وتعالى يوضح سبب غفرانه فيقول جل جلاله ..

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ »

(التوبة : ٨٠)

الحق سبحانه وتعالى حين ينفى الهداية عن إنسان فليس معنى ذلك أن يقول الفاسق .. الله لم يهدنى فماذا أفعل وَيُحَمِّلُ المسألة كلها لله نقول له .. الله لم يهدك لماذا ؟.. لأنك فسقت .

إذاً فعدم الهداية من الله لك لأنك أخذت طريق الفسق والبعد عن منهج الله ، ومن هنا فإن الهداية المقصودة فى هذه الآية ليست بمعنى الدلالة على طريق الخير لأن الدلالة على طريق الخير تأتى من الله للمؤمن والكافر فمنهج الله الذى يبلغ للناس كافة يريهم طريق الخير ويدلهم عليه ، ولكن هناك هداية يعطيها الحق سبحانه وتعالى لمن دخل فى رحاب الإيمان وآمن وحسن عمله وذلك فى قوله عز وجل ..

« وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ »

(محمد : ١٧)

إذاً فكل من سار فى طريق الإيمان أعانه الله عليه ولكننا نجد فى قول الحق سبحانه وتعالى ..

« وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » (التوبة : ٣٧)

وقوله سبحانه وتعالى ..

« وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ »

{التوبة : ٣٧}

وقوله سبحانه وتعالى ..

« وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ »

{الصف : ٥}

لا نقل إن هؤلاء معذورون لأن الله لم يهدهم لأن هداهم دلهم جميعاً على طريق الخير ولكنهم هم الذين أخذوا طريق الكفر والظلم والفسوق .

والحمد لله رب العالمين ،

المحتوى